

رسالة: من القرآن إلى المعمان (٢)

سَلَّع

الْمُهَاجِرُونَ

من أهل إصاير الطرق

تأليف

فريد الأنصاري

كلاركتش لامن

الطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

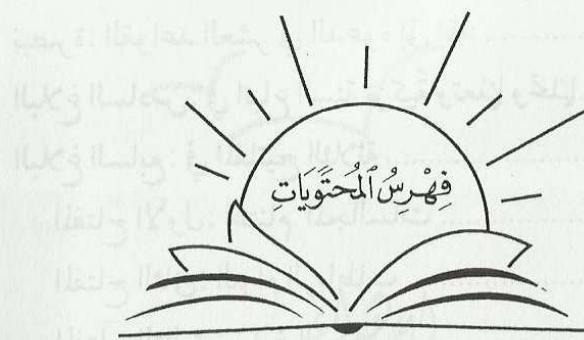
سِلْسِلَةُ: مِنَ الْفُتُوْحَ إِلَى الْعُمَرَانِ (٢)

بَلَاغٌ
الِسْنَاتُ الْقَرَنِيَّةُ
مِنْ أَجْلِ إِبْصَارِ لِآيَاتِ الْطَّرِيقِ

تألِيفُ
فَرِيدُ الْأَضْارِي

بِذَرْ السَّلَامُ

لِلطباعةِ والنشرِ والتوزيعِ والتَّرجمَةِ



الإهداء.....	٧
مقدمة.....	٩
تبصرة: في المنهج.....	٢٠
تبصرة: في قصة بلاغ الرسالة القرآنية	٣٢
البلاغ الأول: في اكتشاف القرآن تدبرًا وتفكيرًا	٣٩
تبصرة: القرآن روح.....	٤٠
تبصرة: ما القرآن؟.....	٤٥
البلاغ الثاني: في التعرف إلى الله والتعریف به.....	٥٧
تبصرة: حق الخالقية هو مفتاح المعرفة بالله.....	٧٥
البلاغ الثالث: في اكتشاف الحياة الآخرة.....	٩٢
البلاغ الرابع: في اكتشاف الصلوات وحفظ الأوقات.....	١٠٧
البلاغ الخامس: في الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.....	١٢٣

تبصرة: القواعد العشر في الدعوة إلى الله:	١٣١
البلاغ السادس: في اتباع السنة تزكيةً وتعلماً وتحلماً	١٤٥
البلاغ السابع: في المفاتيح الثلاثة	١٥٣
المفتاح الأول: اغتنام المجالس	١٥٤
المفتاح الثاني: التزام الرباطات	١٦١
المفتاح الثالث: تبليغ الرسالات	١٧١
خاتمة	١٧٧

* * *

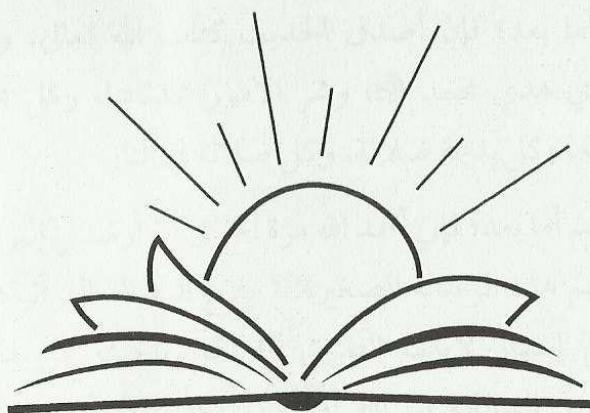
١٧	١٧
٦٧	٦٧
٦٩	٦٩
٧٣	٧٣
٧٥	٧٥
٧٧	٧٧
٧٨	٧٨
٧٩	٧٩
٧٩١	٧٩١
٧٩٣	٧٩٣

إلى القلوب الضارعة إلى الله؛ المكابدة

ظلماتِ الحيرة وتباريحَ الأحزان، بحثاً عن نافذة

للإبصار - أهدي هذه البلاغات

محبكم: فَرِيدُ الْأَنْصَارِي



الْأَنْصَارِي



إن الحمد لله نحْمَدُهُ، ونستعينُ بِهِ، ونستغْفِرُهُ، ونعوْذُ بِاللهِ
مِنْ شَرِّ أَنفُسِنَا، وسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مِنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا يُضِلُّ
لَهُ، وَمَنْ يَضِلُّ فَلَا هَادِي لَهُ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ
لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ، بَلَغَ الرِّسَالَةَ،
وَأَدَى الْأَمَانَةَ، وَنَصَحَّ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقِّ جَهَادِهِ
حَتَّى أَتَاهُ الْيَقِينَ.

أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ أَصْدِقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَيْرُ
الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٌ ﷺ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَتَهَا، وَكُلُّ مُحَدَّثَةٍ
بَدْعَةٌ، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالٍ نَارٌ.

ثُمَّ أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنِّي أَحْمَدُ اللَّهَ مَرَةً أُخْرَى أَنْ أَرْشَدَنِي الْيَوْمَ إِلَى
تَقْدِيمِ هَذِهِ الرِّسَالَةِ الصَّغِيرَةِ؛ (بَلَاغِ الرِّسَالَةِ الْقُرْآنِيَّةِ)؛ مِنْ
أَجْلِ إِبْصَارِ لَآيَاتِ الْطَّرِيقِ؛ لِكُلِّ بَاحِثٍ عَنْ مَعْرِفَةِ
الْطَّرِيقِ السَّالِكَةِ إِلَى اللَّهِ أَوَّلَّا، ثُمَّ لِكُلِّ الْمُهْتَمِمِينَ بِالْمَشْرُوعِ
الْإِصْلَاحِيِّ.

وقد كانت هذه الرسالة - أول الأمر - عبارة عن دروس، ألقاها بمجالس بعض أصحابنا المحبين، وإخواننا الصالحين - نحسبهم كذلك إن شاء الله، ولا نزكي على الله أحداً - مجالس قرآنية مباركة إن شاء الله، شهدتها مدينة مكناة الزيتون حرسها الله، وأصلاح أحواها، تدارسنا خلاها ما تيسر من بلاغات القرآن العظيم، وهي ثمرة لما استقر عليه النظر - بفضل الله وتوفيقه - من خلال بحث سابق في: (البيان الدعوي)، بعد تجربة متواضعة، عملية ووجданية، في مجال الدعوة إلى الله، إذ صار بعدها لهذا الموضوع في قلبي حضور خاص، جعلني أقلب النظر فيما بين يدي من أعمال، باحثاً فيها أرى وأسمع، من تجارب ومبادرات، جاهداً في تلمس طريق تقربني إلى الله، على نهج رسول الله ﷺ، في سيرته ودعوته، عسى أن أهتدي في الشأن التعبدي والإصلاحي إلى التي هي أقوم.

هذا، وقد كانت رحلتي لأداء فريضة الحج لعام: (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م)، فرصة لأعيد النظر والمراجعة، فيما تحصل لدى من رؤى وفهم، في المجال الدعوي والإصلاحي، فشرعت - منذ ذلك التاريخ - في ترتيب النظر، وأنا أرقب واقع العمل الإسلامي، في ظل ما يجتاز العالم الإسلامي اليوم من فتن كقطع الليل المظلم، لا يكاد قطر من أقطاره ينجو منها، ومن فجور سياسي داهم، يحرق

الأخضر واليابس، تهب به عواصف ما سمي بـ (العولمة)، أو (حركة تهويド العالم)، هذه الريح الاستعمارية الغازية الشديدة، الجديدة في أساليبها؛ القديمة في غايياتها ومقاصدها.

ثم إنني رأيت الساحة الإسلامية تعج بالأفكار، من نظريات شتى، وتنظيمات شتى، وسياسات شتى، منها ما يتناقض ويتأكل، ومنها ما يتکامل، وكل يتخد موقعه فيها حسب استعداداته الفطرية، ومؤهلاته الكسبية، وهي - على رغم ما تزخر به من خير كثير - لا تخلو من ثغرات وثلمات، لم تجد بعد من يسدتها، ويقف مرابطاً على حراستها، بل إن بعض الأصول والمنطلقات بقيت مكشوفة الظهر، عارية الشغر، رغم تدبيجها في الورقات، لا تجد من يقف على فجها؛ لأنصراف الناس إلى اقتطاف بعض الثمرات، مما نحسبه خدعة واستدراجاً.

وقصة نزول الرمأة عن جبل الرمأة، في غزوة أحد، لم يزل نذيرها يملأ آذان التاريخ! ولكن ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ، قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى أَسْمَعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]

ولقد تبين - لمن يتبعن - في غبار أحداث العالم الكبرى، التي تندلع عن تواتر الانهيارات الكبرى، منذ مطلع الألفية الميلادية الثالثة؛ أن موضع المسلمين عامة، وموضع أهل الشأن الدعوي منهم خاصة؛ قد تراجعت إلى خط الدفاع الأخير! ولعل في ذلك خيراً للإسلام والمسلمين، علِّمه من

علمه، وجهله من جهله، فذلك - إن أحسن استيعابه وتوظيفه - مما سيقبح انطلاق دورة جديدة؛ لحركة تجديد الدين في العالم بحول الله، بمستوى أعلى، وبأداء أرفع.

ثم تبين أيضاً أن المضي بالدعوة في مسارها المشاهد اليوم في كثير من البلاد؛ مضيًّا لا يراعي الظروف الجديدة؛ إنما هو مقامرة بمصير الأمة! ذلك أن هذا المسار يغلب فيه الاستعراض على الاستنهاض، ويطغى فيه النداء على البناء! وال الحاجة اليوم اختلفت عما كانت عليه قبل سنوات، ولقد نطق شرق الغرب - من قبل - بحكمة مشهورة، تنص على أن النهوض قد يقع بإنجاز (خطوة إلى الوراء من أجل خطوتين إلى الأمام)، وتلك مقوله لها أصل أصيل في صناعة القتال عند المسلمين، مفادها أن: (من لا يحسن الفر لا يحسن الكر)!

ولهذا نظرت بعد ذلك في كتاب الله، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهو أصل الدين كله، منه ينطلق وإليه يعود؛ فتبين لي أولاً أنه لا ينفع الإنسان في هذا كله؛ إلا ما بقي له مدخراً في قبره، عسى أن ينفعه يوم لقاء ربه، فكان أن فتح الله بصيرتي على تولية الوجهة إلى النظر في القرآن؛ تعلمًا وتعليمًا، ومدارسة وتدبرًا؛ عسى أن أهتدي في المسألة الدعوية إلى التي هي أقوم؛ فكان أن اكتشفت أنني كنت أمر على كثير من الآيات دون أن

أبصرها! وذلك كان سبباً في كثير من البلاء والارتباك الحاصل في السير، هنالك كانت التغرات التي دخل منها المرض إلى الجسم، ويُجْمِعُ الأطباء على أن أخطر مراحل التطبيب هو تشخيص الداء، قبل وصف الدواء.

ثم إنه لا بد - بين يدي هذه الورقات - أن أعلن ما سبق لي إعلانه في كتاب: (البيان الدعوي) من أنني أنطلق في عملي هذا من (مبدأ تأمين الدعوة إلى الله)، كما سلف بيانه مفصلاً في محله، بأدله وشهاده، والمقصود بـ (تأمين الدعوة): تحريرها من كل انتهاء (حركي) ضيق، بالمعنى السياسي للكلمة.

لقد كان مما ضيق الاستيعاب الدعوي بالمغرب وغيره؛ أن الكلمة الطيبة عرضت على الناس باسم التنظيمات والحركات! حتى قاس كثير من الشباب الدخول إلى (الجامعة) على وزان الدخول إلى الإسلام، والخروج عنها كالخروج عنه! لقد آن الأوان لتخخص الحركات الإسلامية الحزبية بالاشتغال المؤسسي، والتدافع السياسي، كما هو حالها في الواقع اليوم، وهو أمر لا نقلل من شأنه وأهميته، ولكن على أساس أن يتحرر الشأن الدعوي العام من قبضتها، فالتجربة أثبتت أنها ما زادته - في المرحلة الأخيرة - إلا ضعفاً وتقويضًا!

إن (الحركة) مشروع اجتهادي قد تتبادر وجهات النظر فيه من التوافق إلى الاختلاف، حتى التناقض والتنافي أحياناً!

بينما الدعوة أو (الصحوة)، هي في الأغلب الأعم اشتغال بالعلوم من الدين بالضرورة، فقلما يميل الشأن فيها حتى إلى مجرد الاختلاف، بلـهـ التنافي والتناقض! فقل لي بربك لو أنك استدعيتـ حـاضـراـ، أو عـالـماـ منـ كلـ حـرـكـةـ، منـ يـعـلـمـ اختـلاـفهمـ الحـادـ فيـ مـوـاقـفـهـ الـسـيـاسـيـةـ، وـبـرـاجـمـهـ التـغـيـرـيـةـ، ثـمـ أـوـكـلـتـ لـكـ مـنـهـمـ أـنـ يـتـحـدـثـ لـلـنـاسـ فيـ مـوـضـعـ (ـالـإـنـسـانـ فيـ الـقـرـآنـ) مـثـلـاـ، أوـ مـوـضـعـ (ـالـمـقـاصـدـ الـتـعـبـدـيـةـ فـيـ الـإـسـلـامـ)، أوـ (ـخـطـرـ الـفـسـادـ الـأـخـلـاـقـيـ)، بـشـرـطـ التـجـرـدـ عـنـ الـهـوـيـ التـنظـيمـيـ؛ أـفـلاـ يـكـونـ الـكـلـامـ مـنـهـمـ جـمـيـعـاـ وـاحـدـاـ فـيـ الـجـوـهـرـ؟ـ لـاـ تـنـافـيـ فـيـهـ وـلـاـ اـخـتـلـافـ؛ إـلـاـ كـمـ تـخـتـلـفـ الـعـبـارـاتـ وـالـأـسـالـيـبـ فـيـ عـرـضـ الـأـفـكـارـ؟ـ فـلـمـ إـذـنـ نـرـهـنـ الـدـعـوـةـ بـمـ لـمـ يـرـهـنـهـ الـهـدـيـهـ بـهـ؟ـ أـلـاـ نـكـونـ قـدـ حـجـرـنـاـ وـاسـعـاـ؟ـ بـلـ وـالـلـهـ!ـ وـتـلـكـ هـيـ آفـهـ الـدـعـوـةـ وـالـدـعـاـةـ فـيـ زـمـانـنـاـ هـذـاـ، وـذـلـكـ مـاـ قـصـدـنـاـ التـخـلـصـ مـنـهـ بـ (ـمـبـدـأـ تـأـمـيمـ الـدـعـوـةـ).ـ

نـقـدـ رسـالـتـنـاـ هـذـهـ إـذـنـ؛ وـرـقـةـ عـمـلـ لـنـمـوذـجـ تـطـبـيقـيـ تـتـلـوـهـ نـمـاذـجـ أـخـرـىـ بـحـولـ الـلـهـ، عـلـىـ خـطـوـاتـ وـمـراـجـلـ مـنـ بـعـدـ أـنـ أـصـلـنـاـ النـظـرـ فـيـ كـتـابـنـاـ: (ـالـبـيـانـ الدـعـوـيـ)، فـمـاـ بـقـيـ بـعـدـ القـوـلـ إـلـاـ الـعـمـلـ، وـالـقـاعـدـةـ أـنـ (ـكـلـ عـلـمـ لـيـسـ تـحـتـهـ عـمـلـ فـهـوـ بـاطـلـ).ـ

وـلـقـدـ ظـنـ بـنـاـ بـعـضـ إـخـوـانـنـاـ (ـمـنـ هـنـاـ وـهـنـاكـ)ـ وـبـعـضـ الـظـنـ إـثـمــ أـنـاـ بـدـلـنـاـ وـغـيـرـنـاـ، وـرـكـنـاـ إـلـىـ الـذـيـنـ ظـلـمـوـاـ!ـ فـإـلـىـ

هـؤـلـاءـ وـأـوـلـئـكـ نـقـولـ لـهـمـ كـلـمـةـ وـاحـدـةـ: (ـالـلـهـ رـبـنـاـ وـرـبـكـمـ لـنـاـ أـعـمـلـنـاـ وـلـكـمـ أـعـمـلـكـمـ لـأـحـجـةـ يـبـنـنـاـ وـبـنـكـمـ اللـهـ يـجـمـعـ يـبـنـنـاـ وـلـيـهـ الـصـيـرـ)ـ [ـالـشـوـرـىـ: ١٥ـ].ـ

لـقـدـ اـكـتـشـفـنـاـ أـنـ الـمـنـهـجـ الـمـعـتـمـدـ لـدـىـ بـعـضـ إـخـوـانـنـاـ، فـيـ الـدـعـوـةـ وـالـحـرـكـةـ؛ـ مـنـهـجـ مـقـلـوبـ،ـ يـنـطـلـقـونـ فـيـهـ (ـمـنـ الـعـمـرـانـ إـلـىـ الـقـرـآنـ)،ـ عـلـىـ طـرـيـقـ قـيـاسـ الشـبـهــ وـهـوـ أـضـعـفـ أـنـوـاعـ الـأـقـيـسـةـ فـيـ عـلـمـ الـأـصـوـلــ يـنـظـرـوـنـ إـلـىـ مـاـ عـنـدـ (ـالـآـخـرـ)ـ مـنـ بـنـاءـ،ـ فـيـقـيـسـوـنـ عـلـيـهــ تـشـيـهـاـ وـتـخـيـلـاــ مـاـ يـرـوـنـ أـنـ يـجـبـ أـنـ يـكـونـ عـنـدـنـاـ،ـ وـيـنـطـلـقـونـ فـيـ الـبـنـاءـ؛ـ بـلـ فـيـ التـقـلـيدـ!ـ مـعـ مـرـاعـاـةـ (ـإـسـلـامـيـةـ)ـ الـشـكـلـ الـخـارـجـيــ وـبـيـقـىـ الـجـوـهـرـ بـعـدـ ذـلـكـ يـرـسـحـ بـجـاهـلـيـتـهـ!ـ (ـأـفـمـنـ أـسـسـ بـنـيـتـهـ،ـ عـلـىـ تـقـوـيـ مـنـ اللـهـ وـرـضـوـنـ خـيـرـ أـمـ مـنـ أـسـسـ بـنـيـتـهـ،ـ عـلـىـ شـفـقـاـ جـرـفـ هـكـاـرـ فـانـهـارـ يـهـ،ـ فـيـ نـاـيـ جـهـنـمـ وـالـلـهـ لـاـ يـهـدـيـ الـقـومـ الـظـلـمـيـنـ)ـ [ـالـتـوـبـةـ: ١٠٩ـ].ـ

بـيـنـاـ هـذـاـ الـقـرـآنـ الـعـظـيمـ يـقـدـمـ نـمـوذـجـ الـعـمـرـانـيـ كـامـلـاــ.

إـنـاـ قـرـرـنـاـ أـنـ يـنـطـلـقـ (ـمـنـ الـقـرـآنـ إـلـىـ الـعـمـرـانـ)ـ عـلـىـ مـنـهـجـ رـسـولـ اللـهــ فـيـ سـيـرـتـهـ وـدـعـوـتـهـ،ـ هـذـاـ هـوـ الـطـرـيـقـ إـنـ شـاءـ اللـهــ!ـ فـلـنـ نـصـدـرـ كـتـبـنـاـ الـدـعـوـيـةـ بـعـدـ الـيـوـمـ،ـ وـلـاـ تـجـارـبـنـاـ الـعـمـلـيـةــ إـنـ شـاءـ اللـهـــ إـلـاـ بـهـذـاـ الـمـنـهـجـ وـعـلـىـ أـسـاسـهـ،ـ تـصـوـرـاـ وـتـطـبـيقـاــ.

لأنبي بناءً، ولا نعمر تعميرًا؛ إلا على أساس من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، إن القرآن العظيم تصميم رباني راقٍ لبناء فخم، ما كلف الإنسان إلا بإنجازه، على شموليته وامتداده، بدءًا بعمران الإنسان، حتى عمران السلطان.

فأما عمران الإنسان: فهو البناء الكفيل بإخراج (الإنسان القرافي)، المشار إليه في قوله جل وعلا: ﴿إِنَّمَا يَعْمَرُ مَسْجِدًا لِلَّهِ مَنْ مَأْمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَأَقَاتَ الزَّكُوَةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهُ فَسَعَىٰ أُولَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهَتَّدِينَ﴾ [التوبه: ١٨].

وحيثما نقول: (الإنسان) فهو الفرد والمؤسسة، وهو الوجдан الذاتي والجماعي، وهو الأسرة الواحدة والنسيج الاجتماعي، وهو العامة والخاصة، وهو المجتمع والدولة.. إلى غير ذلك من الثنائيات التي يستوعبها مصطلح (الإنسان).

ورسالتنا هذه (بلغ الرسالة القرانية) هي من هذا المعنى الأول.

وأما عمران السلطان: فهو البناء الكفيل بإخراج السلطان القرافي، وليس المقصود بالسلطان عنصره البشري، ومرجعه الإنساني، كلا! فذلك هو المعنى الأول وقد سبق، وإنما

المقصود به طبيعته العمرانية، وعمقه النظامي، وهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَثُوكُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوكُمْ الْصَّلَاةَ وَأَقَاتُوكُمُ الزَّكُوَةَ وَأَمْرُوكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَهُ عِنْقَبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]، وليس هذا إلا نتيجة للأول، ومن عَكَسَهُما فقد قلب المنهج، ولقد بَيَّنَ في كتاب (البيان الدعوي) من ذلك؛ احتجاجًا واستدلالًا؛ ما يكفي إن شاء الله، فلا داعي للإطالة.

والذي يجمع الأول والثاني؛ ليتم كمال (العمران)، هو: (عمران الاستخلاف)، الذي يشمل كل النشاط البشري، ويستوعب كل أبعاده الكونية، وهو المعبر عنه في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبَّكَ فِي بَيْتٍ مُحَجَّبٍ﴾ [هود: ٦١].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

وقوله سبحانه: ﴿يَنْدَوِدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَنْهَى الْهَوَى فَيُضْلِلَكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

وقوله تعالى: ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [ص: ٢٦] هو جزء من كلي خلافته، وليس هو إياها، وقد سبق لنا في هذه المسألة تدليل وتأصيل، في كتابنا المذكور، لمن شاء التفصيل.

العمل إذن هو: (من القرآن إلى العمران)، إن معنى ذلك أننا ننخرط في حركة (البعثة الجديدة) التي نراها تنطلق اليوم؛ تصديقاً لوعد القرآن العظيم؛ ولبشارة الرسول الكريم ﷺ.

وقولنا (حركة)؛ ليس بالمعنى السياسي للكلمة، حيث يضيق اللفظ ويقتزم؛ لينحصر في الدلالة على دائرة تنظيمية محدودة، كلاً!

وإنما (الحركة) هنا بمعناها العمرياني الكبير، حركة يديرها رب الكون، الحي القيوم سبحانه، مجدها في الأرض، وتقديرها في السماء، تصميمها القرآن، ومنفذها الإنسان، ولنا في هذا الموضوع تأصيل آخر، في خطوة تأليفية تتلو هذه بحول الله.

فها عليك يا صاحِيَّ الآن إلا أن تتناول التصميم القرآني ل الهندسة العمرانية، فتشعره بين يديك نشراً، تتبين معالمه، وتتبصر موازينه، وتشعر في التنفيذ؛ بناءً وعميرًا، وكل كلام دون ذلك مضيعة للأعمار في غير طائل، ويكفي الأمة ما أهدرت - ولا تزال - من الطاقة في الجدل والكلام. ومن الحِكْمَ المأثورة، أنه (إذا أراد الله بقوم سوءاً سلط عليهم الجدل ومنعهم العمل!).

و قبل الخلوص من هذا التقديم أعلن لكل من يرغب في السير إلى الله أن هذه الورقة المتواضعة؛ هدية له مني، هدية من قلب أخلص المحبة للمحبين، فمن وجد فيها ما ينفع فهي له، ومن لم يجد من ذلك شيئاً فليدفع عنه ما يكره، والله الهادي إلى الخير والمعين عليه.

وصل الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتب عبد ربه راجي عفوه وغفرانه، الفقير إلى رحمته ورضوانه:

فرييد بن الحسن الأنباري

الخزرجي السجلماسي، غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين.

وقد وافق تمام تبييهه وتصحيحه - بمحنة الرذون، من حواضر المغرب الأقصى

فجر يوم الأربعاء ٩ ربيع الثاني: ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢/٦/١٩ م

فالمرض إذن؛ نظر بلا إبصار! قال عَبْدُكَ: ﴿ وَرَزَّهُمْ يُظْرِوْنَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبَصِّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٨]، وقال سبحانه: ﴿ وَكَانُوا مِنْ مَنْ يَأْتِي فِي الْأَسْمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمْرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥]، والقرآن العظيم مجموع كلي من الآيات الدالة على الطريق، آيات هي في حاجة فقط إلى من يبصّرها؛ ومن هنا وصف الله القرآن كله بأنه (بصائر)، قال سبحانه: ﴿ هَذَا بَصَّارٌ لِلنَّاسِ وَهُدَى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٠].

والبصائر: جمع بصيرة، وهي الآية التي تُبصّرُ الناس حقائق الوجود، وتدلّهم على الطريق السالكة إلى الله، عند

=إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَعْذُرُوا مِنْ أَقْطَارِ أَسْكُونَتِ وَالْأَرْضِ فَأَنْذِرُ أَنْ لَا تَنْذُرُوا إِلَى إِسْلَامِنَ ﴿ يَأْتِي مَا تَرَكْتُمْ ﴾ (١) يُرِسْلُ عَلَيْكُمْ شُوَاطِئُ مِنْ تَأْبِي وَمُخَاسِنُ فَلَا تَنْصَرُنَ ﴾ [الرحمن: ٣٣-٣٥]، قال رحمة الله: (أبصّر! ...) وشاهد معنى الآية الكريمة في نور إعجازها الواضح وضوح النهار، وخذ نجم حقيقة واحدة من سماء تلك الآية الكريمة، واقذف بها الشيطان القابع في ذهنك وارجمها! (ونحن كذلك نفعل هذا) (الكلمات: ٢١٠)، وقال رحمة الله: (ما زالت الغفلة، أبصرت نور الحق عياناً) (الكلمات: ٢٤٠)، وطالما كان يقول في رسائله: (هكذا شاهدت!) (المثنوي العربي: ١٥٨)، ن. ذلك كله في كليات رسائل النور تأليف الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، نشر دار (سوزلى) للنشر، فرع القاهرة ط ٢ بمصر (١٤١٢ هـ/ الموافق ١٩٩٢ م).

كما أنه لا بد من التنويه بما كان لأختينا الدكتور أحمد العبادي - حفظه الله وسلمه - من أثر في تحقيق مناط هذا المفهوم في نفسي، وذلك من خلال مذكرات ثنائية لا تنسى، فجزء الله الجزء الأول.



إن عودتي إلى القرآن؛ مدارسة وتدبراً؛ كشفت لي أنني كنت أمر على كثير من الآيات دون أن أبصرها!

نعم! لقد قادني التدبر للقرآن العظيم إلى أن أكتشف أن النظر لا يغنى عن الإبصار! ^(١).

(١) لا بد من الاعتراف لأهل الفضل بفضلهم؛ فقد كان لأستاذِي العالم المري، الدكتور الشاهد البوشيخي حفظه الله وسلمه الآخر الأول في إثارة انتباهي إلى الأسرار الدعوية للقرآن العظيم، وما ينطوي عليه من كنوز ومفاتيح لكثير مما مختلف فيه الناس اليوم من قضايا تجديد الدين، وذلك من خلال ما تلقيناه عنه من دروس علمية وتربيوية في وقت كان الالتفات إلى هذا نادراً، فله من الله الجزاء الأوفى على ما علم وربى.

ثم لا بد بعد ذلك من ذكر ما كان لرسائل بديع الزمان سعيد النورسي رحمة الله من أثر كبير في تجليه هذا المعنى في قلبي، ذلك أنه رحمة الله إنما كان يتعامل مع القرآن بمنهج إبصاري.

فقد كان مبدئه في ذلك قوله: (كن من شئت وأبصّر! وافتح عينيك فحسب؛ وشاهد الحقيقة! وأنفذ إيمانك الذي هو مفتاح السعادة الأبدية!) (الملحق: ١٠٥) فمثلاً في سياق تفسير قوله تعالى: ﴿ يَمْعَثِرُ الْمُنْتَهَى وَالْأَنْتَ =

تعدد الطرق السالكة إلى غيره، وتسمى (بصيرة) من حيث هي مشعة بالنور، الذي يكون سبباً في تبصير الأعين الواقعة عليها، ولذلك وصف الله الآيات في سياق آخر بأنها (مبصرة) على صيغة اسم الفاعل، فنسب الإبصار إليها من حيث هي سبب فيه، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا إِيَّاهُ أَنْهَارَ مُبَصِّرَةً﴾ [الإسراء: ١٢]، أي: مضيئة للأشياء، ومبصرة بذلك للأعين في الإبصار.

إلا أن الموضوع المقصود عندنا هنا هو: الإبصار النفسي، أو الإبصار القلبي، لا إبصار الجوارح، فالنفس الإنسانية (جسم) روحاني سوي، له جوارحه النفسانية، المفارقة للبدن. وإنما البدن لباسها الخارجي، قال تعالى: ﴿وَقَسِّ وَمَا سَوَّنَا﴾ [الشمس: ٧]، فإن إبصار النفس، أو إبصار القلب هو الذي يصاب بالعمى عن الغفلة، ويعالج بالتذكر، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَتَقْوَى إِذَا مَتَّهُمْ طَلِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَنِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبَصِّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، وقال سبحانه: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَلُ الْأَبْصَرُ وَلَكِنْ تَعْمَلُ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وعليه يحمل معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّنَا نَمَّا مُبَصِّرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [النمل: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّنَا ثَمَوْدَ الْنَّاقَةَ مُبَصِّرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩]، فالآيات مبصرةً بمعنى مبصرة، فهي بذلك بصيرة، وال بصيرة: هي الثقب الذي يجعل في

باب الدار من أجل معرفة الطارق، وهي اليوم العدسات المجهرية التي ثُبّتت على أبواب المنازل، فمن خلالها يطلع الإنسان على الحقيقة ويكتشف طبيعتها.

ومن هنا كانت آيات القرآن مبصرةً، أو بصائر.

فإذا نصب المولى الكريم الآيات بصائر للناس، فإنهم إن لم يصروا؛ لامن آثذ إلا على أنفسهم، وهو قوله تعالى الوارد على أشد ما تكون النذارة: ﴿فَدَّ جَاءَكُمْ بَصَارُكُمْ مِّنْ رَّيْكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَيَ فَعَيَهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤] إن هذه الآية أُمٌّ من أمهات الكتاب. فأعد قراءتها وتدبر ثم أبصر! تدبر ثم أبصر! لأن الإبصار نتيجة طبيعية للتدبر، ولذا كانت الآيات صارمة في وجوب التدبر على ما سيأتي تفصيله وبيانه بحول الله.

- ومن أجل هذا كله خاطب الله جل جلاله الناس ذوي الأبصار، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لِعْنَةً لِّأُفْلِي الْأَبْصَرِ﴾ [النور: ٤٤]، وقوله أيضاً: ﴿فَأَعْيُرُو إِنَّهَا لِأَبْصَرِ﴾ [الحشر: ٢].

إن القرآن العظيم نسق كلي من الآيات، والآيات والأي جمع آية: وهي العلامة المنصوبة للدلالة على معلومة يُسْتَرْشُدُ بها في أمر ما، ومن هنا كانت الآية بمعنى: الحجة والبرهان.

والحياة الدنيا - بلا دين - ظلمات متضاربة كأمواج البحر البهيم. والناس راحلون إلى ربهم من خلال ما حد لهم من أعمار، إنها رحلة شاقة مضنية، قال تعالى: ﴿يَتَأَلَّهَا إِلَانَسُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلْقِيْهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، وهو لذلك في حاجة ماسة إلى الآيات؛ عسى أن يسهل عليه أمر العبور، وتتضح له معالم الطريق، ويسلك له سبيلها، تماماً كما لا تسلك الطريق لسائق السيارة؛ إلا بتنصب علامات على كل مراحلها، وإنما العلامات: الآيات، كما في كل معاجم اللغة، هذا شيء مهم جداً، لكن ما فائدة الآيات بدون إبصار؟

ودعني أقصص عليك ها هنا قصة التاجر والأجير:

تبصرة:

خرج يوماً أحد التجار الأغنياء، من يحسبون من أهل الدين والصلاح، يقصد عالم المدينة، فسألته في ضائقته نزلت به، يريد من خلاها التوسل إلى الاقتراض الربوي من الأبناء؛ بناء على ما ظهر له فيها من الضرورة، مما لم يره العالم له، على ما يعرفه منه، ومن حاله، إذ كان يمكنه بيع شيء من ممتلكاته - وعنه منها ما يزيد على حاجته الحقيقة - لكن العالم لاحظ من خلال إلحاحه، وإعادة عرض مشكلته؛ أن عينيه تشوقان إلى الحصول على رخصة!

ثم حدث أن جاء إلى العالم نفسه - بعد ذلك - رجل فقير، يستغل أجيراً، مقابل ما لا يسد حاجته، فشكراً - فوق ذلك - ضائقه شديدة ألمت به، فأنزلت به وبأهلة ضرراً في الأموال والأبدان! فكان نظر العالم - على ما يعرفه منه ومن حاله، بعد استنفاد كل أبواب الحلال - أن رأى له رخصة المضرر حقيقة، بجواز ارتكاب أخف الضررين اتقاءً لأشدhem؛ وذلك بالاقتراض الربوي، في حدوده المقدرة بقدرها، من بعد ما انسدت السبل كلها في وجهه، ثم غاب عنه أياماً؛ حتى ظن أنه قد أتم أمره، ثم لقيه بعد ذلك، فوجده ما يزال يعاني من مشكلته تلك، والختناق لا يزداد إلا اشتداداً عليه، فسألته عنها فعل في مسألة الاقتراض، فزفر زفة كادت تمزق قلبه! فقال: إني ما تحرأت على الاقتراض منه! إني لم أستطع! إني أسائل الله أن يجعل لي مخرجاً غيره!

وعجب العالم من الفرق بين صاحبيه: الأول: وهو التاجر، الذي كان يعيش حياة أقرب إلى الترف منها إلى الاعتدال، يمنعه من الربا لكنه يطمع، والثاني: الأجير الذي كان يعيش وأسرته - في كثير من أحواله - على ما لا يسد الحاجة، يفتيه بالرخصة فيمتنع!

قلت: إن الفرق بينهما - لو تدبرت - هو الفرق بين الأعمى والبصير! وبيان ذلك كما يلي:

فَأَمَّا الْأَجِيرُ فَقَدْ أَبْصَرَ الْآيَاتِ: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الْإِرْبَوْنَ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَبَخَّطُهُ السَّيِّطَنُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الْإِرْبَوْنَ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَمَ الْإِرْبَوْنَ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةً مِنْ رَبِّهِ فَأَنْهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرَهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَلِيلُونَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَتَقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقَى مِنَ الْإِرْبَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فَإِنَّمَا تَعْلَمُوا فَإِذَا نَوَّا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُهُونٌ أَمْوَالُكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٩-٢٧٥].

لقد رأى الأجير المال الحرام، فأبصره جمراً مشتعلًا! وأبصر أكلته صرعى يتخطبون في نار جهنم! الآخذين والمعطين فيه سواء، أبصراً لهم يتداولون نقوداً مشتعلة، لأن معدتها قد سك من مارج نار! وأبصر لهبها يتطاول إلى دار الدنيا؛ فيحرق عشه، ويخرب بيته، ويهلك بدنه وماله، ويلتهم من حياته ما ظن أنه يعمره، لقد أبصر حقًا! أبصر ذلك كله فانكمشت يده خوفًاً مارأى!

وأما التاجر فإنما سمع، وليس من رأى كمن سمع! وكذلك كان رسول الله ﷺ يُبَصِّرُ أصحابه صورةً المال الحرام، ففي الصحيحين من حديث أم سلمة، عن رسول الله ﷺ أنه سمع خصومة بباب حجرته، فخرج إليهم، فقال: «إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلي، فلعل بعضكم أن يكون أحن بحجته من بعض؛ فاقتضي له على نحو ما

أسمع، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار!
فليأخذها أو ليتركها!»^(١).

- وروي الحديث بطرق أخرى فيها زيادة، قال: «إنما أقطع له قطعة من النار يأتي بها إسطاماً في عنقه يوم القيمة!» [والإسطام: الحديدية التي تسرع بها النار] فبكى الرجال، وقال كل واحد منها: حقي لأخي! فقال رسول الله ﷺ: «أما إذا قلتها، فاذهبا فاقتسما، ثم توخي الحق، ثم استهما، ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه»^(٢).

وعلى هذا المنهج التربوي يفهم حديث حنظلة الأسيدي ﷺ، لما أبصر الآيات فقال: لقيني أبو بكر فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة! قال: سبحان الله! ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله ﷺ، يذكرا بال النار والجنة؛ حتى كأنا رأي عين! فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ؛ عافسنا الأزواج والأولاد والضياعات؛ فنسينا كثيراً، قال أبو بكر: فو الله إنا لنلقى مثل هذا! فانطلقت أنا وأبو بكر، حتى دخلنا على رسول الله ﷺ، قلت: نافق حنظلة يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: «وما

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أحمد، وأبو داود، والبيهقي، والدارقطني، وابن أبي شيبة في مصنفه، وابن الجارود في متنها.

ذلك؟ » قلت: يا رسول الله، نكون عندك تذكراً بال النار والجنة؛ حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافستنا الأزواج والأولاد والضياعات، نسينا كثيراً! فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إن لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر؛ لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقمكم! ولكن يا حنظلة، ساعة وساعة! ثلاثة مرات»^(١).

وكذلك كان منهج الصحابة - من بعده - في التبصير بالآيات، كلما ادھمت المشكلات، ومن ذلك ما روتة عائشة رضي الله عنها من قصة موت النبي ﷺ، حيث فزع عمر رضي الله عنه للخبر، وكأنه لم يصدقه، فقام يقول: والله ما مات رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه ! - قال عمر: والله ما كان يقع في نفسي إلا ذلك - ولعيشه الله، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم! فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه ، فقبله، قال: بأبي أنت وأمي، طبت حيًّا وميًّا، والذي نفسي بيده لا يذيقك الله موتين أبداً! ثم خرج فقال: أهيا الحالف على رسلك! فلما تكلم أبو بكر جلس عمر، فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه، وقال: ألا من كان يعبد محمدًا صلوات الله عليه وآله وسلامه؛ فإن محمدًا قد مات! ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت! وقال: «إنك ميت وإنهم ميتون» [الزمر: ٣٠]، وقال: «وما محمد إلا رسول قد خلت

مِنْ قَبْلِهِ الرَّسُولُ أَفَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أَنْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَبِكُمْ وَمَنْ يَنْقُلِبْ عَلَى عَقِبِيهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ أَشَّكَرِينَ» [آل عمران: ١٤٤]، فتشج الناس ي يكون (...)، قالت عائشة رضي الله عنها: لقد بصر أبو بكر الناس المهدى، وعرفهم الحق الذي عليهم، وخرجوا به، يتلون: «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرَّسُولُ» إلى «أَشَّكَرِينَ» (رواه البخاري)، وفي رواية أخرى عن ابن عباس رضي الله عنها قال: «والله لكان الناس لم يكونوا يعلمون أن الله أنز لها؛ حتى تلها أبو بكر رضي الله عنه؛ فتلقاها منه الناس، فما يسمع بشر إلا يتلوها!»^(١).

إن هذه النصوص تدل بشكل واضح على النهج التبصيري، الذي كان يعتمد ر رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه مع أصحابه، كما تدل على مدى الإبصار الذي كانوا يتمتعون به في تلقي الآيات عن رسول الله، وهذا سراها الله جل جلاله (بصائر)، كما في الآية التي اخذناها شعراً لهذا المعنى: «قَدْ جَاءَكُمْ بَصَارِرُ مِنْ رَّيْكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَيْنَاهَا وَمَا أَنَا عَيْنُكُمْ بِمَحْفِظٍ» [الأنعام: ١٠٤].

تبصرة:

إن نجاح المشروع الدعوي ليس رهيناً بعد المتبعين؛ بقدر ما هو رهين بعد المبصرين، والمبصرین!

إن هذه الورقات محاولة لوضع أسس، لمشروع إصلاحي، يخاطب الوجдан الديني، الفردي والجماعي، ألتفت فيه إلى البدويات الدينية، الاعتقادية والعملية، التي تبين لي أن كثيراً من البلاء المتسلط على البلاد والعباد؛ إنما مصدره ما وقع - من حيث ندرني أو لا ندرني - بسبب إهمال تلك البدويات ونسيانها.

وإني لأعتقد جازماً أن ظهر الحركة الإسلامية اليوم، عارٍ تماماً من كل حماية، فهي تقف كذلك على خط المواجهة، غير محمية الظهر؛ فتصاب من خلفها كما تصاب من أمامها، وأحسب أن الرجوع إلى الأصول البدويات في الدين؛ إنما هو رجوع إلى اعتلاء جبل الرماة، الذي كان إخلاؤه سبب هزيمة المسلمين في معركة أحد.

وإني لأرجو أن تكون هذه الورقات فاتحة خير إن شاء الله، لنفسي أولاً، ولمن شرح الله صدره لبلاغات القرآن؛ عسى أن نعود إلى التمسيك بالأصول، التي بها نكون صالحين لميراث محمد ﷺ؛ أو لا نكون!

ذلك هو المنهج الرباني الذي عليه وقع البلاغ بصريح نص القرآن العظيم؛ فاقرأ قول الله جل جلاله وتذير: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الْزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الْذِكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الْمُصْلِحُونَ ﴾١٥﴾ إنَّ فِي هَذَا لِكَلَغاً لِّقَوْمٍ

﴿عَكِيدَت﴾ [الأنبياء: ١٠٥، ١٠٦]؛ ﴿عِبَادِيَ الْمُصْلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وشرط وشَرطَ فيمن تجرد لطلب الإرث الرباني، فعثنا تحاول نفسك الثقلية الوصول المنشود؛ دون تحقيق الشرط، ذلك حق يقين يعلنه الله على العالمين جزماً قاطعاً: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لِكَلَغاً لِّقَوْمٍ عَكِيدَت﴾ [الأنبياء: ١٠٦]!

في أيها الخليم الحيران، السالك مسالك الحياة الدنيا، تبحث - مثلي - عبر ليلها المظلم عن باب للخروج من الفتنة.. هذا باب النور، فاقرأ وتدبر قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمْسِكُونَ بِالْكِتَبِ وَأَقَامُوا أَصْلَوَةً إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

اقرأ وتدبر.. ثم أبصر!



في قصة بلاغ الرسالة القرآنية

سألني أحد المحبين يوماً، قال: كيف نجدد ديننا؟

قلت:

سؤالان كبيران، يرتبطان بوجود الإنسان في الكون، ويرتبطان بمصيره فيه، لكن قلما نضعهما - نحن المسلمين - اليوم على أنفسنا؛ لأننا نزعم أننا نعرف الجواب بداهته، فهل حصل لك - يا صاح - أن جردت نفسك من نفسك وسألتها يوماً كأنها شخص آخر:

السؤال الأول: هل تعرفين الله؟

السؤال الثاني: هل تعرفين القرآن؟

المشكلة هي أننا عندما نكتفي بـ (نعم) نكف عن البحث، وننقطع عن السير في طريق المعرفة الربانية، واستكشاف هذا القرآن العظيم!

افرض إذن أنك - مثلي - لا تملك الحقيقة كاملة، ولتابع البحث معًا:

ألسنا مسلمين؟ ألسنا نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؟ بل طبعاً، هذا شيء حسن، فدين الإسلام الذي هو بباب النجاة يوم القيمة إنما يبني بعد الإيمان بالله على شهادة أن محمداً رسول الله، هذا بدهي، ومعلوم من الدين بالضرورة، نعم، ولكن تأمل: عبارة (رسول الله) هذا الوصف للنبي محمد ﷺ، هو مناط الدين، الذي قال عنه الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عَنْدَ اللَّهِ إِلَّا سَلَّمُوا﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ عَيْرَ إِلَّا سَلَّمَ دِينَهُ فَلَمَّا يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِيرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، فكل الإسلام قائم على شهادة أن محمداً رسول الله، فتتجزأ عن هذا الوصف (رسول) أن الدين كل الدين - أعني الإسلام - هو عبارة عن (رسالة)، وهذا شيء عظيم جداً، ندرك رسمه، وقلما نبصر حقيقته، وإليك البيان:

عندما نقول: (محمد رسول الله) فإن الحقيقة اللغوية والحقيقة الشرعية كليتها تقتضيان أن محمد بن عبد الله قد جاء برسالة معينة، أي أنيطت به مهمة، يقوم بتبلیغها، فكان بذلك (رسولاً)، ولو لا ذلك لما كان له شأن في الكون ولا في التاريخ.

آه، مازلت تحدثني عن البدهيات، والمعلومات البسيطة..
عفواً، عفواً، اصبر على قليلاً.. فلعل عدم تأملنا لهذا الذي
نسميه (بدهيات)، أو معلومات من الدين بالضرورة، هو
سبب شرودنا بعيداً عن حقائق الإسلام.

قلت لك يا صاح: الرسالة - أي رسالة، منها كانت -
لها أربعة أركان هي:

الأول: المرسل؛ وهو من قام بإرسال الرسالة.

والثاني: المرسل إليه، وهو الطرف المعنى بها والمخاطب
بفحوها.

والثالث: الرسول، وهو حامل الرسالة المبلغ لها،
بتكليف من المرسل.

ثم الرابع: وهو الخطاب المرسل وهو مضمونها؛ أي متن
الرسالة، ونصها اللغوي الحامل لمقصود مرسلها.

وهذا كله لو تدبرت منطبق على الإسلام من حيث هو
رسالة.

فالخلاصة إذن؛ هي أن الإسلام: رسالة، مضمونة في
متنها؛ أي في خطابها الحامل لمضمونها الرسالي، وهو القرآن
الكريم، الذي هو متن الرسالة، ثم السنة النبوية التي هي
ملحقها الشارح؛ تلك هي أول مراتب «أهداها الصراط المستقيم»
[الفاتحة: ٦]، لو تدبرت قليلاً.

إنك لو قرأت القرآن بهذا المنطق لوجدت عجباً!
فسؤالك يا صاحبي يقوم على استيعاب هذا المعنى أولاً،
أعني أن تجديد الدين يقوم أساساً على تبين ما «الصراط
المستقيم»؟ ثم كيف الاستقامة عليه؟ وبغير ضبط (الحقيقة
الرسالية) للقرآن فلا ضمان أن تكون محاولات التصحيح
خارج «الصراط المستقيم». وليس عبثاً أن يكون ذلك هو
دعاء المسلم في كل صلاة، سبع عشرة مرة في اليوم والليلة
على الأقل، اصبر على يا صاح، واقرأها الآن مرة أخرى،
اقرأها فأنت مأجور على كل حال إن شاء الله، اقرأها
وتدبرها قليلاً؛ كلمة كلمة، ثم استأنف بعد ذلك قراءة هذا
الكتيب: «أهداها الصراط المستقيم ① صراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرَ
الْمَغْصُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا أَصْنَاعَنَّ» [الفاتحة: ٧، ٦].

مهم جدًا أن تستحضر في ذهنك ووجدانك؛ أن القرآن
يخبرنا عن نفسه؛ أنه رسالة، جاءت تحمل (الهدية) للناس
الحياري - وكل الناس لولا الدين حيارى - ويرسم لهم
معالم الصراط المستقيم، فتدبر قوله تعالى: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ
رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا إِلَيْمَنْ وَلِكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا
تَهْدِي بِهِ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صَرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ② صَرَاطٌ
اللَّهُ أَنْدَلِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ»
[الشورى: ٥٢، ٥٣].

وهنا فقط ندخل إلى صلب الموضوع:

إن الشعور بالمعنى الرسالي للقرآن، إنما يتحقق لك على المستوى النفسي؛ إذا تصورت طبيعة الوجود البشري، ذلك أن الإنسان إذ جاء من عالم الغيب، قد أحاطت به حجب عالم الشهادة فقد فقد الاتصال بأصله الغيبي؛ إلا ما كان من نداء الفطرة الخفي في قلبه.

إن ميلاد كل شخص من بطن أمه، ونزوله إلى الدنيا، هو كنزول آدم عليه السلام، من الجنة في عالم الغيب؛ إلى الأرض في عالم الشهادة، حيث تبدأ حجب الحياة الدنيا تنسج على الإنسان غلائل النسيان وتغرقه في جزئياتها اليومية، فيضرب بعيداً عن استشراف السماء مرة أخرى، ومن هنا اقتضت رحمة رب العظيم - وهو الرحمن الرحيم - أن يرسل الرسول إلى الناس، أن ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقَوْنَ﴾ ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الْأَرْضَ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لَهُ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢، ٢١].

جاءت الرسالة من عالم الغيب لترتبط الإنسان بأصله الحقيقي، ولتشعره بسعة الكون، وربوبية الخالق عليه السلام، المحيطة بكل شيء، ثم تعلمه بقصته كاملة من النشأة حتى المصير، وما له في ذلك كله وما عليه، فجاء القرآن لذلك في

صورة (بلاغ) رباني، هذا مصطلح مهم؛ للتعرف على طبيعة القرآن: إنه (بلاغ) فيه دلالة عميقة على (قصد التبليغ) لضمون الرسالة؛ حتى يتم العلم بها على التهام عند من قصدوا بالتبليغ والإعلام، ذلك أن (البلاغ) في العربية يرد بمعنى (التبليغ والإبلاغ)، جاء في لسان العرب: (والبلاغ: الإبلاغ). وفي التنزيل: ﴿إِلَّا بَلَغَ مِنَ اللَّهِ وَرِسْلَتِهِ﴾ [الجن: ٢٣]؛ أي لا أجد منجي إلا أن أبلغ عن الله ما أرسلت به، والإبلاغ: الإيصال، وكذلك التبليغ، والاسم منه البلاغ^(١)، ومن هنا كان (البلاغ القرآني) جاماً للمعنىين معًا: البيان والتبيين، فهو (بلاغ)؛ أي بيان إعلاني في نفسه، يوصل إلى الناس بنصه مجموعة من العقائد والمبادئ، وهو (بلاغ) أيضًا: أي تبيان رسالي من حيث هو حركة في المجتمع، يقوم بها الرسول ومن ينوب عنه من الدعاة، والعلماء المصلحين؛ لتبلغ مضمونه وإيصال نصه إلى الناس أجمعين؛ حتى تشمل الرسالة كل العالمين؛ ومن هنا قوله عليه السلام: ﴿هَذَا بَلَغٌ لِلنَّاسِ وَلَيُنَذَّرُوا بِهِ، وَلَعَلَّهُمْ أَنَّهُ هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ وَلَيَدَكُرُ أَنُولُوا الْأَلْبَبِ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

- إنه بلاغ قادم من عالم الغيب، من فوق سبع سماوات، إلى عالم الشهادة، إلى الإنسان المتحرك فوق هذه الأرض،

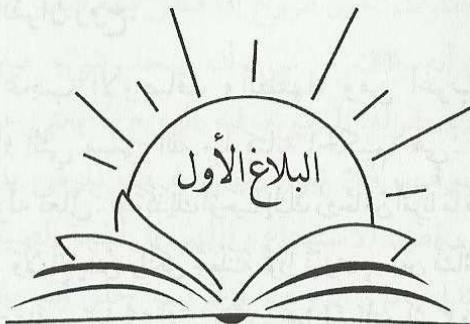
(١) لسان العرب: مادة (بلغ). طبعة دار صادر، بيروت.

وبين العالمين مسافة رهيبة، لا يستطيع العقل استيعابها، مهما أوقى من قدرة على الخيال، فجاء القرآن رسالة تعبر تلك المسافات كلها لتلقي على الإنسان خطاباً ربانياً عظيماً، يحمل قضايا محددة، قصد (إبلاغها) للإنسان، قضايا أو إن شئت فقل: (بلاغات) هي مناط مسؤوليته، ووظيفته في الأرض، يمكن أن نلخصها في سبعة بلاغات، أرجو أنها أصول لما سواها من مقاصد الإرسال الرباني.

ولقد كان أول هذه البلاغات هو القرآن نفسه، أعني أن أول ما جاء القرآن ليبلغه إلى الناس هو هذا المعنى الرسالي للقرآن؛ حتى لا يقرأ أحد أو يستمع إليه، بعيداً عن هذه الحقيقة الكونية الكبرى؛ فلا يستفيد من بلاغاته الربانية شيئاً.

إن أول ما يجب أن يعرفه الإنسان من القرآن هو طبيعة هذا القرآن، من حيث هو رسالة رب الكون، مرسلة إلى واحد من أهم سكان الكون: الإنسان أنت، يا صاح، وأنا، وكل إنسان.. فكان ذلك هو البلاغ الأول للقرآن.. فتدبر!
ثم أبصر!

* * *



في اكتشاف القرآن تدبراً وتفكيرًا

لا سبيل إلى معرفة الحقيقة إلا عبر هذا القرآن أولاً، ولا يكون ما دونه من طرق المعرفة إلا توابع له وملحق، فهو متن الرسالة التي أرسلها رب العالمين إلى الخلق، وما سواه شروح وتفاسير؛ ويا لتعasse من ضل عن هذا الأصل العلمي العظيم، إذن يضرب في التيه على غير هدى.. قال تعالى: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلّٰٓيْ هُنَّ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّنْعَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَيْرًا ① وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا» [الإسراء: ٩، ١٠]، وقال مستدركاً بقوه على الذين حرفوا وبدلوا وغيروا: «وَلَكِنْ كُوْنُوا رَبِّيْنَعَنْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَكْتَبَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرِسُونَ» [آل عمران: ٧٩]، ذلك سبيل الربانية الأوحد، لا سبيل سواه؛ فتدبر.. ثم أبصر!

تبصرة: القرآن روح:

من أعجب الأوصاف وألطافها، ومن أغرب الأسماء وأروعها؛ التي سُمِّيَ الله بها كتابه الحكيم، هي: أنه روح! وذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلْكَتْ وَلَا أَلْيَمَنْ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهَدِي بِهِ مَنْ نَشَاءَ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾^{٥٥} صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشوري: ٥٣، ٥٢].

والروح له في القرآن خصائص. نذكر منها اثنين:

الأولى: أن جوهره ممتنع الإدراك، وإنما الشأن فيه أن نقول: (إنه من أمر الله)، قال جل جلاله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِّ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيْشُ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]. وسمى القرآن هنا أيضًا: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشوري: ٥٢].

والثانية: أنه سبب الحياة، وباعتها - بإذن الله - في سائر الأحياء، فبملاسته تحيا الأجساد، وبمقارنته تموت. كما هو منطوق كثير من الأحاديث النبوية. وذلك نحو قوله ﴿إِنَّ أَحَدَكُمْ يَجْمِعُ خَلْقَهُ فِي بَطْنِ أَمَهُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نَطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلْقَةً مُثْلِذَةً ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مُثْلِذَكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلِكًا، وَيُؤْمِرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ وَرِزْقَهُ وَأَجْلَهُ وَشَقِّيْ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يَنْفَخُ فِي الرُّوحِ... الْحَدِيثُ﴾^(١). وقال ﴿وَقَالَ

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أحمد والترمذى والنمسائى، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٨١٧) نشر المكتب الإسلامى بىروت / دمشق. ط. الثالثة: (٨/١٤٠٨) هـ / (١٩٨٨) م.

في وصف الموت: «إن الروح إذا قبض تبعه البصر»^(١)، وفي الصحيح أنه ﴿نَهِيَ أَنْ يَتَخَذَ شَيْءٌ فِي الرُّوحِ غَرْبًا﴾^(٢)، فقوله: (شيء في الروح) يعني من الطير وسائر الدواب، فلا يجوز اتخاذه غرضاً للرمي بالنبال، أو الرصاص،قصد الاستمتاع واللهو لا لمنفعة الصيد؛ لما فيه من الاعتداء على الروح، وتخريب خلق الله بلا هدف مشروع.

والشاهد عندنا أن الروح هو سبب الحياة، فهي توجد بوجوده، وتندم بانعدامه.

إنما كان القرآن روحًا، لأنه سبب حياة هذه الأمة، من حيث هي (أمة)، وسبب حياة القلوب، فلا يموت قلب خالطت نبضه آيات القرآن الكريم، ولا حياة لقلب خلي منها. فاقرأ الآية مرة أخرى، وتدبر، ثم حاول الإبصار: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلْكَتْ وَلَا أَلْيَمَنْ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهَدِي بِهِ مَنْ نَشَاءَ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾^{٥٥} صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشوري: ٥٣، ٥٢]، ذلك محمد بن عبد الله، عليه صلاة الله وسلامه، كان يحاول أن يخرج من ظلمات الجاهلية، إذ لم

(١) متفق عليه.

يقتضي بأفكارها، وضلالاتها؛ فاعتزلها، لكنه لم يجد تفسيرًا للغز الذي يغلف هذا الوجود؛ حتى نزل عليه الروح بالروح، أي حتى نزل عليه جبريل بالقرآن من أمر الله؛ فأحياه الله به بعد موات، وأنار بصيرته به؛ فصار من المبصرين، يهدي إلى صراط مستقيم، بمعالم فصلها هذا الكتاب، الذي يصف ما بين السماوات والأرض، وينجذب عن أسرارهما، من بدء الخليق إلى يوم البعث، ويرسم الطريق للإنسان خلال ذلك كله؛ كي يسلك إلى ربه ويعرف عليه، فأنى لك يا صاح أن تجد مثلك؟

ومن هنا وجب أن تكون خطوتكم الأولى، في طريق المعرفة الربانية؛ أن تتعرف على القرآن، بل أن تكتشفه؛ ولذلك جاء الخطاب القرآني يحمل أمر القراءة للقرآن؛ تلاوةً وترتيلًا، وأمر التعلم للقرآن مدارسةً وتدبرًا.

والتدبر: هو غاية كل ذلك و نتيجته؛ ولذلك قال عَلِيُّكَ: ﴿كَتَبْ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَرَّكُ لِيَبْرُرُوا مَعْيَنَهُ وَلِيَسْذَكِّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، فجعل غاية الإنزال للقرآن التدبر والتذكرة، ولو لا التدبر لما حصل التذكرة الذي هو يقظة القلب، وعمران الوجودان بالإيمان، فالتدبر هو المنهج القرآني المأمور به لقراءة القرآن العظيم؛ ومن هنا زجره تعالى للناس الذين لا يتذمرون، قال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَفْنَاهَا﴾ [محمد: ٢٤]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوْجَدُوا فِيهِ أَخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] .

بِصَرَةٍ: فَمَا التَّدْبِرُ إِذْنٌ؟

تَدَبَّرَ الشَّيْءَ - في اللغة - يَتَدَبَّرُهُ: تتبع دبره، أي نظر إلى أواخره وعواقبه ومالاته، كيف هو إذا صار إليها؟ وكيف يكون؟ جاء في لسان العرب: (وَدَبَّرَ الْأَمْرَ وَتَدَبَّرَهُ: نظر في عاقبته، وَاسْتَدَبَّرَهُ: رأى في عاقبته ما لم ير في صدره؛ وَعَرَفَ الْأَمْرَ تَدَبَّرًا؛ أَيْ بِأَخْرَةِ (...) وَالتَّدْبِيرُ فِي الْأَمْرِ: أَنْ تَنْظُرَ إِلَى مَا تَؤْتُولُ إِلَيْهِ عاقبته، وَالتَّدَبَّرُ: التَّفْكِيرُ فِيهِ)^(١).

فتدبر القرآن وآيات القرآن: هو النظر إلى مالاتها وعواقبها في النفس وفي المجتمع، وذلك بأن تقرأ الآية من كتاب الله، فتتضرر - إن كانت متعلقة بالنفس - إلى موقعها من نفسك، وأثارها على قلبك وعملك، تنظر ما مرتبتك منها؟ وما موقعك من تطبيقها أو مخالفتها؟ وما آثار ذلك كله على نفسك، وما تعانيه من قلق واضطراب في الحياة الخاصة والعامة؟ تحاول بذلك كله أن تقرأ سيرتك في ضوئها، باعتبارها مقياساً لوزن نفسك وتقويمها، وتعالج أدواءك بدوائها، وتستشفى بصفاتها.

وأما إن كانت تتعلق بالمجتمع؛ فتتضرر في سنن الله فيه كيف وقعت؟ وكيف تراها اليوم تقع؟ وكيف ترى سيرورة المجتمع وصيورته في ضوئها؟ عند المخالفة وعند الموافقة.. ثم تنظر ما علاقة ذلك كله بالكون والحياة والمصير؟

(١) لسان العرب، مادة: (دبر).

وهنا تلنج إلى باب آخر من أبواب القرآن رديف للتدبير، بل هو منه، ذلك هو: التفكير، إن التفكير غالباً ما يرد مذكوراً في القرآن في سياق النظر في خلق الله، والتأمل في بديع صنعه، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ الْأَيَّلِ وَالنَّهَارِ لَذِكْرٌ لِأُولَئِكَ الْأَلَبِ﴾ ^{١١١} *الذين يذكرونَ اللهَ قِيمَةً وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَنْقَعِدُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بِطَلَّا سُبْحَنَنَا فَقَنَاعَدَ بِالنَّارِ* ^{١١٢} *رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ* ^{١١٣} *رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيَ يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنَّ مَاءِمُوا بِرَبِّكُمْ فَعَامَنَا رَبَّنَا فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِرْ عَنَّا سَيِّعَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَتْرَارِ* ^{١١٤} *رَبَّنَا وَإِنَّا مَا وَعَدْنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةَ إِنَّكَ لَا تَخْلُفُ الْمِيعَادَ* [آل عمران: ١٩٠ - ١٩٤]، فكل هذه الأدعية العابدة، الحارة، الخاشعة، الباكية؛ إنها هي نابعة عن الإحساس الحاصل للعبد بعيد التفكير في خلق الله، فاقرأ الآيات وتدبر.. تجد أن المؤمن لما يسبح في جنبات الكون الفسيح، يشعر بعظمة الله الواحد القهار، وتأخذه الرهبة من جلال ملكه وعظمة سلطانه؛ فيسرع هارباً إلى مساقن رحمته، وجمال غفرانه.

وبما أن القرآن كتاب يحيل المتدين له على امتدادات الكون، ويرجع به إلى كشف كثير من أسرار الوجود، وغرائب الخلق؛ فإن (التدبر) الذي هو المنهج الرباني لقراءة القرآن؛ يحيل الإنسان على (التفكير) الذي هو المنهج الرباني لقراءة

الكون، فيكون كل متدين للقرآن متفكراً في الكون، فتقرأ - بقراءة القرآن - كل آيات الله المنظورة والمقرؤة سواء.

وبذلك كله يتم لك شيء آخر، هو: الإبصار.

إن التدبير والتفكير كلّيهما، يعتبران بمثابة الضوء، أو الشعاع المسلط على الأشياء، تماماً كما تسلط الشمس أشعتها المشرقة - في اليوم الصحو - على الموجودات، فتبصرها الأعين الناظرة، فكذلك التدبير يكشف حقائق الآيات القرآنية، والتفكير يكشف حقائق الآيات الكونية، حتى إذا استثارت هذه وتلك؛ أبصرها المتذبذرون والتفكيرون، وكانت لهم فيها مشاهدات، لا تكون لغيرهم، ولذلك قال ربّك: ﴿فَدَجَاءَكُمْ بَصَارِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنْتُ عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤]، وقال سبحانه: ﴿فَاعْتِرُو وَيَأْتُفُلِ الْأَبْصَرُ﴾ [الحشر: ٢].

هكذا وجب أن تقرأ القرآن آيةً آيةً؛ اقرأ وتدبر ثم أبصر! عسى أن ترى ما لم تر، وتدرك من حقائقه ما لم تدرك من قبل؛ فتكون له متذبذراً.. فتدبر!

تبصرة: ما القرآن؟

ولنسأل الآن: ما القرآن؟ ما هذا الكتاب الذي هز العالم كله؛ بل الكون كله؟

أجمع العلماء في تعريفهم للقرآن على أنه (كلام الله)،

واختلفوا بعد ذلك في خصائص التعريف ولوازمه، ولا نقول في ذلك إلا بما قال به أهل الحق من السلف الصالح، وإنما المهم عندنا الآن هنا بيان هذا الأصل المجمع عليه بين المسلمين: (القرآن كلام الله)، هذه حقيقة عظمى، ولكن لو تدبرت قليلاً..

الله جل جلاله خالق الكون كله.. هل تستطيع أن تستوعب بخيالك امتداد هذا الكون في الآفاق؟ طبعاً لا أحد له القدرة على ذلك إلا خالق الكون سبحانه، فلامتداد الذي ينتشر عبر الكون مجهول الحدود، مستحيل الحصر على العقل البشري المحدود، هذه الأرض وأسرارها، وتلك الفضاءات وطبقاتها، وتلك النجوم والكواكب وأفلاكها، وتلك السماء وأبراجها، ثم تلك السماوات السبع وأطباقيها... إنه لضرب في غيب رهيب لا تحصره ولا ملايين السنوات الضوئية، أين أنت الآن؟ أسأل نفسك.. أنت هنا في ذرة صغيرة جداً، تائهة في فضاء السماء الدنيا - الأرض - وربك الذي خلقك، وخلق كل شيء؛ هو محيط بكل شيء قدرة وعلماً.. هذا الرب الجليل العظيم، قدر برحمته أن يكلمك أنت، أيها الإنسان؛ فكلمك بالقرآن.. كلام الله رب العالمين، أو تدري ما تسمع؟ الله ذو الجلال رب الكون يكلمك «فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى» [طه: ١٣]، أي وجدان، وأي قلب؛ يتدبر هذه الحقيقة العظمى فلا يخرب ساجداً لله الواحد القهار رغباً ورهباً؟

اللهم إلا إذا كان صخراً أو حجراً، كيف؛ وها الصخر والحجر من أخشى الخلق لله؟ ﴿لَوْ أَنَّنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ، خَشِعًا مُضَدَّاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتَلَقَّ الْأَمْثَلُ نَصْرِهِ مَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَنْفَكِرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]. وهي أمثال حقيقة لا مجاز، ألم تقرأ قول الله تعالى في حق داود عليه السلام: ﴿إِنَّا سَخَّنَا لِجَبَالاً مَعَهُ، يُسْتَخْنَنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [١٦] ﴿وَالظَّرِيرَ مَحْشُوَّةً كُلُّ لَهُ أَوَابٌ﴾ [١٧] [ص: ١٩، ١٨]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّ رَبُّهُ، لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكَّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

كلام الله هو كلام رب الكون، وإذا تكلم سبحانه تكلم من عَلَى: أي من فوق؛ لأنَّه العلي العظيم سبحانه، فوق كل شيء، محيط بكل شيء؛ علماً وقدرة، إنه رب الكون.. فتدبر: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ يُكَلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ [فصلت: ٥٤]، ومن هنا جاء القرآن محيطاً بالكون كله، متحدثاً عن كثير من عجائبها، قال تعالى في سياق الكلام عن عظمة القرآن: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ الْجُبُورِ﴾ [٦٥] وَإِنَّهُ لَقَسْمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ [٦٦] إِنَّهُ لَقْرَأَنَ كَرِيمٌ [٦٧] فِي كِتَبٍ مَكْتُونَ [٦٨] لَا يَمْسِهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ [٦٩] تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ [٧٠] أَفِهَنَا الْحَدِيثُ أَنْتُمْ مُذَهَّبُونَ [٧١] وَتَجَعَّلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٢]، سبحانه ربنا ولا بأي من آياتك نكذب.

ذلك هو القرآن.. كلام من أحاط بموضع النجوم؛ خلقاً

وأمّا وعلّما وقدرة، وإبداعاً، فجاء كتابه بنقل ذلك كله، أتزله على محمد ﷺ، من بعد ما هيأه لذلك، وصنعه على عينه سبحانه جل وعلا، فقال له: ﴿إِنَّا سَلَّمَتِي عَلَيْكَ قَوْلًا قَيْلًا﴾ [المزمول: ٥]، ومن هنا لما كذب الكفار بالقرآن، نعى الله عليهم ضالة تفكيرهم، وقصور إدراكهم، وضعف بصرهم، عن أن يستوعبوا بعده الكوني الضارب في بحار الغيب، فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسْطَرُ الْأَوَّلِينَ أَكَتَبْتَهَا فِي هَيَّ ثَمَّلَ عَلَيْهِ بُكَرَةً وَأَصْبَلَ﴾ ⑤ ﴿فُلْ أَنْزَلَهُ اللَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦، ٥].

وإنه لرد عميق جداً، ومن هنا جاء متحدثاً عن كثير من السر في السموات والأرض، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا فِي هَذَا الْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ إِلَّا إِنْسَنٌ أَكْثَرُهُ شَوُّجَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]، وقال: ﴿سَرِّيْهُمْ إِيَّتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَبْيَنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحُقُّ أَوْ لَمْ يَكُفِ بِرِبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ⑥ ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ [فصلت: ٥٤، ٥٣].

فليس عجباً أن يكون تالي القرآن متصلةً ببحر الغيب، ومجورةً بميزان الغيب، بكل حرف حسنة والحسنة بعشر أمثالها، والحرف إنما هو وحدة صوتية لا معنى لها في اللغة، نعم في اللغة، أما في القرآن فالحرف له معنى، ليس بالمعنى الباطني المنحرف، ولكن بالمعنى الرباني المستقيم، أو ليس هذا الحرف القرآني قد تكلم به الله؟ إذن؛ يكفيه ذلك دلالة

وأي دلالة، ويكتفيه ذلك عظمة وأي عظمة، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول (ألم) حرفاً، ولكن ألف حرف، ولا م حرف، وميم حرف» ^(١).

ولذلك كان لقارئ القرآن ما وعده الله إياه، من رفيع المنازل في الجنان العالية، وما أسبغ عليه من حلل الجمال، قال رسول الله ﷺ: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في دار الدنيا، فإن منزلك عند آخر آية كنت تقرؤها» ^(٢). وقال أيضاً: «يجيء القرآن يوم القيمة فيقول: يا رب حّلّه؛ فيليس تاج الكرامة، ثم يقول: يا رب زده؛ فيليس حلة الكرامة، ثم يقول: يا رب أرض عنه؛ فيرضى عنه. في يقول: اقرأ وارق ويزاد بكل آية حسنة» ^(٣). ﴿فَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلَ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤].

إنه تعالى تكلم، وهو ﷺ متalking، سميع، بصير، عليم، خبير، له الأسماء الحسنى والصفات العلي، نسبتها كما أثبتها السلف، بلا تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه، لقد تكلم ﷺ،

(١) رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح. انظر سنن الترمذى، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ما له من الأجر، كما رواه الحاكم أيضاً في المستدرك.

(٢) رواه أحمد، والترمذى، والنسائى، وأبو داود، وابن حبان، والحاكم، وصححه الألبانى في صحيح الجامع الصغير (٨١٢٢).

(٣) رواه الترمذى والحاكم وحسنه الألبانى في صحيح الجامع الصغير: (٨٠٣٠).

وكان القرآن من كلامه الذي خص به هذه الأمة المشرفة، أمة محمد عليه الصلاة والسلام.

فكان صلة بين العباد وربهم، صلة متينة، مثل الحبل المدود من السماء إلى الأرض، طرفه الأعلى بيد الله، وطرفه الأدنى بيد من أخذ به من الصالحين.

قال عليه الصلاة والسلام في خصوص هذا المعنى، من حديث لطيف، تشد إليه الرحال: «كتاب الله هو حبل الله المدود من السماء إلى الأرض»^(١)، وقال في مثل ذلك أيضاً: «أبشروا.. فإن هذا القرآن طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم، فتمسكون به، فإنكم لن تهلكوا، ولن تضلوا بعده أبداً»^(٢). وروي بصيغة أخرى صحيحة أيضاً فيها زيادة ألطاف، قال **ﷺ**: «أبشروا.. أبشروا.. أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله؟ قالوا: بلى، قال: فإن هذا القرآن سبب، طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم، فتمسكون به، فإنكم لن تضلوا، ولن تهلكوا بعده أبداً»^(٣).

(١) رواه الطبراني في تفسيره: (٤/٣١)، نشر دار الفكر بيروت لبنان: (١٤٠٥هـ). وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير: (٤٤٧٣).

(٢) رواه الطبراني بإسناد صحيح. وهو في صحيح الجامع الصغير: (٣٤).

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه، والبيهقي في شعبه، وابن أبي شيبة في مصنفه، والطبراني في الكبير، وعبد بن حميد في المتخب من المسند، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: (٧١٣). نشر مكتبة المعرفة بالرياض، لصاحبها سعد بن عبد الرحمن الرشيد، طبعة جديدة بتاريخ: (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).

ذلك أن القرآن جاء - وهو من رب العالمين - ببلاغاً إلى الناس أجمعين، يحمل رسالة ذات مضامين من النبأ الرباني العظيم، نبأ الخلق، ونبأ الكون، ونبأ الغيب، ونبأ الشهادة، ونبأ الحياة، ونبأ الموت، ونبأ البعث القريب.. ونبأ الأمر الإلهي الحكيم في ذلك كله، وكلف رسوله ببلاغه جميعاً إلى الناس، فقال له **ﷺ**: «**يَكَانُهَا أَرْسَوْلُ بَلَغَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنَّ لَهُ تَقْفِلَ فَمَا بَلَغَتِ رِسَالَتُهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهِيءُ الْقَوْمَ لِكَفَرِهِنَّ» [المائدة: ٦٧]، وقال أيضاً: «**قُلْ إِنِّي لَنْ يُحِيدَ فِي مِنَ الْأَهْلَكَ وَلَنْ يَحِدَّمِنْ دُونَهِ، مُتَّحِدًا** **إِلَّا بِالْغَنَامِ** أَنَّ اللَّهَ وَرَسُولُهُ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّهُ لَهُ، نَارَ جَهَنَّمَ حَلِيلِينَ فِيهَا أَبَدًا» [الجن: ٢٢، ٢٣]، وقال سبحانه: «**هَذَا بَلْغٌ لِلنَّاسِ وَلَيُنَذَّرُوا إِلَيْهِ أَبَدًا**» [الجن: ٢٢، ٢٣]، وقال سبحانه: «**وَلَيَعْلَمُوا أَنَّهَا هُوَ إِلَهٌ وَحْدَهُ وَلَيَدْرِي كَمْ أَوْلَوْا الْأَلْبَابِ**» [إِرَاهِيم: ٥٢]، وقال: «**فَإِنَّمَا أَعْيَتُكَ الْبَلْغَ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ**» [الرعد: ٤٠]، ومن أشد المعارض القرآنية لهذا المعنى وقعاً على النفس؛ قوله تعالى للمؤمنين من هذه الأمة - بعد آية تحريم الخمر مباشرة -: «**وَأَطِعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا رَسُولَهُ وَاحْذَرُوا إِنْ تَوَلَّتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ**» [المائدة: ٩٢]، ونحو ذلك كثير في القرآن الكريم؛ مما ينطق عن طبيعته (البلاغية) بالمعنى الرسالي للكلمة، وما يتبع عن ذلك من إعذار وإنذار، ومن نقل الأمانة الملقاة على عاتق كل مسلم، بل كل إنسان بلغته الرسالة.**

ومن هنا فيما كان رسول الله **ﷺ** يدعو إلى الله إلا بهذا القرآن، استجابة لقوله تعالى: «**فَلَا تُطِعُ الْكَافِرِينَ وَجَهَدُهُمْ بِهِ**».

جَهَادًا كَيْرًا ﴿٥٢﴾ [الفرقان: ٥٢]، وكذلك كان صحابته الكرام على هديه عليه الصلاة والسلام، فما أسلم أغلب من أسلم من الصحابة إلا بعد سماع القرآن، وهذا أمر متواتر في كتب السنن، وكتب السير والمغازي، لمن استقرأه وتبعه، ومن أشهر الأمثلة على ذلك قصة مفاوضة قريش للنبي ﷺ، إذ بعثت إليه ممثلها الوليد بن عتبة، فكلمه في أن يكف عن تسفيه أحلامهم، حتى إذا فرغ من مقالته قال له الرسول ﷺ: أفرغت؟ قال: نعم، قال: فقال رسول الله ﷺ: ﴿ حَمَّ تَنْزِيلٌ مِّنَ الْرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ... حتى بلغ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذِرْ رَبَّكُمْ صَاحِفَةً مِثْلَ صَاحِفَةِ عَادٍ وَّثَمُودٍ ﴾ [فصلت: ١٣] [١].

وكذلك كانت سفارة النبي ﷺ في البلاد، إذ يرسل صاحبته إلى الأقاليم والأمصار، فإنما كانوا يدعون الناس بالقرآن، كما هو الشأن في بعث أصحابه إلى المدينة، فعن البراء بن عازب رض قال: (أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ: مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم، فجعلوا يقرئنا القرآن) ^(٢).

هي الرسالة وصلت من رب العالمين إليك أيها الإنسان،

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده، وابن هشام في السيرة، والبيهقي في الدلائل، وأبو نعيم في دلائل النبوة، وابن أبي شيبة في المصنف، وعبد بن حميد، والحاكم في المستدرك، ووافقه الذهبي، وحسنه الأستاذ إبراهيم العلي في صحيح السيرة النبوية: (٦٤). دار النفائس الأردن، ط. الثانية: (١٤١٦هـ/١٩٩٦م).

(٢) رواه البخاري.

فاحذر أن تظنك غير معني بها في خاصة نفسك، أو أنك واحد من ملالي البشر، لا يُدرى لك موقع من بينهم، كلاماً! إنه خطاب رب الكون، فيه كل خصائص الكلام الرباني، من كمال وجلال، أعني أن الله يخاطب به الكل والجزء في وقت واحد، ويحصي شعور الفرد والجماعة في وقت واحد، **﴿قُلْ إِن تُحْفَوْا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ بَتَّدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي أَسْمَوَاتٍ﴾** وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَوِيرٌ ﴿[آل عمران: ٢٩].

سبحانه جل جلاله، لا يشغله هذا عن ذاك، وإنما معنى
الربوبية وكما لها؟ تماماً كما أنه قد ير على إجابة كل داع، وكل
مستغيث، من جميع أصناف الخلق، فوق الأرض وتحت
الأرض، وفي لجج البحر، وتحت طبقاته، وفي مدارات
السماء... إلخ، كل ذلك في وقت واحد - وهو تعالى فوق
الزمان والمكان - لا يشغله شيء عن شيء، له الملك، وله
الحمد، وهو على كل شيء قدير، فبذلك المنطق نفسه أنت إذ
تقرأ القرآن تجد أنه يخاطبك أنت بالذات، وكأنه لا يخاطب
أحداً سواك، احذر أن تخطئ هذا المعنى.. تذكر أنه كلام الله،
وتدبر.. ثم أبصر !

قال جَلَّهُ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَفَنَالَهَا﴾ [محمد: ٢٤]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ عَيْرِ اللَّهِ لَوْجَدُوا فِيهِ أَخْلَاقَنَا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].. فتدبر !

ذلك هو القرآن: الكتاب الكوني العظيم، أقرأه وتدبره،

فوراء كل كلمة منه حكمة بالغة، وسر من أسرار السماوات والأرض، وحقيقة من حقائق الحياة والمصير، ومفتاح من مفاتيح نفسك السائرة كرها نحو نهايتها. فتدبر.. إن فيه كل ما تريده، ألسنت تريده أن تكون من أهل الله؟ إذن؟ عليك بالقرآن، اجعله صاحبك ورفيقك طول حياتك؛ تكون من (أهل الله) كما في التعبير النبوي الصحيح، قال عليه الصلاة والسلام: (إن الله تعالى أهلهن من الناس: أهل القرآن هم أهل الله، وخاصته) ^(١).

وأخيراً؛ فإن في كتاب الله آية عجيبة، تدلّك على الطريق: كيف يبدأ، وكيف ينتهي؟ تدبر قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمْسِكُونَ بِالْكِتَبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠]. تمسكك بالكتاب أولاً؛ وهو الأخذ ببلاغاته بقوة، وإقامة للصلوة ثانياً: وهو إحسان أدائها والسير إلى الله عبر مواقفها، ثم انطلاق إلى الإصلاح والدعوة إلى الخير. ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠]، تلك إذن المدارج الأولى للسالكين، كما سترى بحول الله تعالى.

هذا غاية ما عندي يا صاح عن القرآن، فلا تغتر بما عندي؛ إنه لا يحده عن القرآن إلا القرآن؛ فتدبر.. اقرأه آية فاية، وتدبر.. ثم أبصر!

(١) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير: (٢١٦٥).

أبصر لنفسك! فإن الإبصار لا نياية فيه لأحد عن أحد، وإنما الذي يمكن أن أساعدك به هو التبصير بمنهج الإبصار لآيات الطريق، حتى إذا أبصرت؛ ربما رأيت فيها ما لم أر، وأبصرت منها ما لم أبصر!

تبصرة:

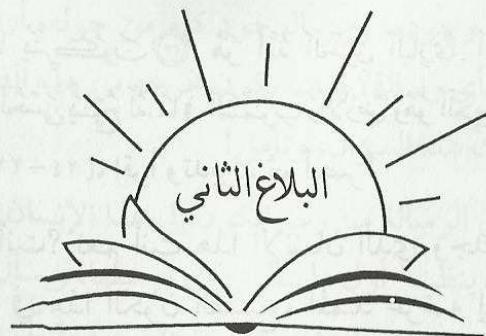
القرآن إذن؛ هو متن رسالة الله.. يمنحك أول مقاصده الإسرالية: معرفة الله، مرسل الرسالة إلى الخلق، تلك حقيقته الأولى، وهي أول ما يرفع بصيرتك إليه؛ عسى أن تبصر جمال الخالق جل جلاله؛ فتكون من العابدين.

فأسأل نفسك: هذه هي الرسالة: القرآن، ولكن؛ هذا المرسل.. من يكون؟ ومن هو؟

هذا أول المعرفة الربانية، وهو في مقاصد الخطاب القرآني، البلاغ الأول، ذلك من حيث الرتبة لمقاصد الإرسال، وهو هاهنا من حيث ترتيب السير المنهجي في التعرف على معلم الطريق، ومنازل السير يحتل الرتبة الثانية منهجيًّا لا مقاصديًّا؛ إذ لا يعرف الله إلا بمعرفة القرآن، كما أنه لا يمكن أن يعبد الله - عمليًّا - إلا باتباع رسول الله، وإن شئت فقل: معرفة الله وتوحيده هو غاية الغايات، ومتنهى الخطوات، ولكن أولها قطعًا وإنجازًا هي معرفة القرآن، فإذا أنت عرفت ما القرآن؟ وبدأت تغرس من مأدبة الله؛ وجدت الله جل وعلا أول المقاصد التي يدعوك القرآن لتعرفها.

فلا ضير إذن أن يكون هذا البلاغ: (التعرف على الله) من حيث هو مرسى الرسالة قد جاء (ثانياً) بهذا الترتيب التعليمي، بعد (الأول) الذي هو معرفة الرسالة نفسها، وتحقيق التوصل بها، وإلا فلا صراط ولا سير ولا هدى، وقد بينت لك أن معرفة الله تعالى - من حيث الترتيب المقصادي - هي أصل الأصول ومتنه الوصول، فليكن إذن.

* * *



في التعرف إلى الله والتعريف به

اسأل نفسك: هل تعرف المرسِل؟ أو بعبارة أخرى: هل تعرف الله؟

هذه خطوة أولى، لا بد منها لقراءة الرسالة الربانية؛ ذلك أن أول مقاصد القرآن هو تعريف الناس بالله، المتكلم بالقرآن؛ ولذلك جاء تعريف الله لذاته سبحانه؛ بأسئلته الحسنى؛ مباشرة بعد التنبيه على عظمة هذا القرآن، كأنه قال لك: اعرف القرآن أولاً لتعرف الله، أو ليس هو تعالى المتكلم بالقرآن؟ قال جل جلاله يصف ذاته: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ، خَشِعًا مُصَدِّعًا مِنْ حَشْيَةِ اللَّهِ وَتَلَكَ أَمْثَلُ نَصْرِهَا لِلثَّالِثِ لَعَلَمَهُمْ بِنَفْكَرُوْنَ﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَدَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقَدُّوسُ الْسَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَمَّمُ الْعَزِيزُ الْجَبَارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ

اللَّهُ عَمَّا يُشَرِّكُونَ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ
الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَيِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
[الحشر: ٢١-٢٤]، اقرأ وتدبر.. ثم أبصر!

من أنت؟ نعم أنت هذا الإنسان الذي وجد نفسه -
فجأة - في هذا الكون الفسيح، الممتد عرضه إلى حدود
الغيب المجهول..

كون عجيب وغريب. لم يستطع الإنسان المعاصر رغم ما
اكتسب في مجال العلوم الكونية والفلكلية والطبيعية، من
معارف؛ أن يسبر أغواره الرهيبة، بل ها هو ذا ما يزال واقعاً
على شاطئ الكون ينظر في حيرة: أين ترسو حدود الصفة
الأخرى؟

فما المجرات والنجوم والكواكب وأفلاكها وفضاءاتها
جميعاً - ما نرى وما لا نرى - إلا بطن السماء السفل،
الممتدة من تحت سبع سماوات! كما قال الله تعالى في القرآن:
﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاوَاتِ الَّذِيَا بِرِزْقِنَا الْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦]، وما الأرض
من ذلك إلا كحلقة في فلة! وأما باقي السماوات فذلك ما
لا سبيل إلى إدراكه إلا بالإيمان!

وتنبعث الحياة في الإنسان.. ليسعى في الأرض وينظر إلى
السماء، يتأمل ويتفكر، ليدرك في نهاية المطاف ألا حل لهذا
اللغز الذي يطوق وجوده إلا برسالة تحيىء من عالم الغيب،

خبره بسر وجوده، وسر الوجود كله من حوله، أرأيت أن
لو لم تأت أي رسالة؟ كيف يكون مخرجه من هذه الظلمات؟
سل نفسك هذا السؤال، وتأمل!

ثم تأتي الرسالة من رب الكون إلى هذا الإنسان.. وكان
أولى به أن ينظر - أول ما ينظر - إلى مرسليها، ويسأله - أول
ما يسأل - عن مصدرها؛ حتى يتحقق منه يقيناً. ذلك أن
الإنسان عندما يتوصل عادة بأي رسالة أرضية بشرية، فإنه
ينظر بادئ النظر إلى اسم المرسل من هو؟ حتى إذا استقر في
ذهنه اسمه قرأ الرسالة حيثئد؛ لأنه على قدر المرسل عند
المرسل إليه تكون قيمة الرسالة، ولقد علمنا أن الإنسان إذ
تصله رسالة من محبوب أو مرهوب، يقرأ خطابه بروية
وإمعان، حتى إن الأم الأمية التي تتلقى رسالة من ولدها،
المسافر في أرض الغربة النائية بعيداً، تكلف من يقرأ لها
الكلمات، فتستمع لها استماعاً وتنصت إنصاتاً، وتراءها -
وهي المرأة الأمية - تصيخ السمع للكلامات الفصيحة،
تلتلقها تخيلًا بالوجودان، وإن لم تفهم معناها الدقيق على
التحقيق، فتحرك رأسها بالقبول لكل ما قال الحبيب!

وتأتي الرسالة من رب الكون، ولكن قلما نوليهما
تستحق من اهتمام، مع أنها تجينا عن لغز الحياة من
حولنا، ولغز وجودنا فيها، فلا نحتفي بالقرآن رسالة الله
إلى العالمين. عجباً، عجباً!

وإذن؛ دعني أبدأ لك بالدعوى فأقول: إنا - مع الأسف - لا نعرف الله!

نعم، إن وضع المسلمين اليوم يؤكد هذه الحقيقة المؤسفة، تقول كيف؟ إليك البيان:

أما المعرفة بالله فدرجات ومراتب، وما أحسب هذا الشroud الرهيب عن باب الله في هذا الزمان؛ إلا دليلاً قاطعاً على الجهل العظيم، الذي يكبل الناس أن يبحثوا عن ربهم الذي خلقهم؛ مما يصنفنا دون أدنى مراتب المعرفة بالله، ترَأَخِينَا عن سلوك طريق المعرفة به في الرخاء، فبقينا هملاً، أو لقى في مزبلة التاريخ! وبقيت وصية رسول الله ﷺ فيما دون وفاء، فكان لها مفهومها المخالف في واقعنا: (تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة) ^(١).

لو كان الناس يعرفون الله حقاً؛ لرأيت الحال غير الحال؛ ولرأيتم يسابقون في أداء حق الحالية، وبيان ذلك بالمثال التالي، ولا مشاحة في الأمثال:

إذا قدر الله أن يكون إنسان ما جاهلاً بوالديه - لسبب من الأسباب - كلها أو أحدهما، لكنه نشأ محظيناً بحضور بعض المحسنين، حتى شب وكبر ثم اكتشف الحقيقة: وهي

(١) رواه الحاكم، والطبراني، وأبو نعيم، والبيهقي، وعبد بن حميد، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير رقم: (٢٩٦١).

أن هذا الذي رباه ليس أبياه، وأن هذه التي أرضعته ليست أمه التي ولدته؛ فإنه حينئذ يدخل في غربة شديدة، قد تذهب بعقله كله، أو بعضه، إلا أن يعتصم بالله، والسبب في ذلك أنه فقد المعرفة بمن كان له سبباً في الخروج من عالم العدم إلى عالم الوجود، ودخل في جهل عظيم بنسبه وأصله، وانقطعت بين يديه سلسلة سنته التي تربطه إلى شجرة المجتمع الإنساني الذي يعيش فيه، وهنا - بصورة تلقائية لا إرادية - يدخل في سلسلة من البحث والأسئلة في كل مكان، وحيثما اتفق، يسأل سؤالاً واحداً: من أبي؟ أو من أمي؟ سؤالان يؤولان إلى معنى واحد: هو من أنا؟

إن البحث عن الذات فطرة في الإنسان، ولن تعرف الذات إلا بمعرفة سبب وجودها، إذ المعلومات مرتبطة بالعلل وجوداً وعدماً، ومن ثم جهلاً ومعرفة، وهنا يذكر حديث النبي ﷺ، في قصة غضبه من كثرة أسئلتهم المعنلة.

أخرج الشیخان عن أنس بن مالك رض، في حديث طويل، أن رسول الله ﷺ قام فيهم خطيباً، فكان مما قال: «من أحب أن يسأل عن شيء فليسأل عنه! فواه لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به، ما دمت في مقامي هذا!» قال أنس: فأكثر الناس البكاء، وأكثر رسول الله ﷺ أن يقول: سلوني! فقال أنس: فقام إليه رجل فقال: أين مدخلني يا رسول الله؟ قال: النار! فقام عبد الله بن حذافة فقال: من أبي يا رسول الله؟

قال: أبوك حذافة! قال: ثم أكثر أن يقول: سلوني! سلوني!
فبرك عمر على ركبتيه فقال: رضينا بالله ربنا، وبالإسلام
ديننا، وبمحمد رسولنا، قال: فسكت رسول الله حين
قال عمر ذلك، ثم قال رسول الله: أولى والذي نفس محمد
بيده! لقد عرضت علي الجنة والنار آنفًا، في عرض هذا الحائط،
فلم أر كاليلوم في الخير والشر! ^(١).

فتتأمل هذا المشهد: كيف لم يجرؤ أحد من الصحابة أن
يسأل شيئاً؛ إذ رأوا أمارة الغضب عليه ﷺ، إلا رجلين:
أحدهما سأله عن مدخله، فأجابه: النار، والعياذ بالله!
والآخر انتهز الفرصة - رغم هول الموقف - فقال: (من
أبي؟) فأجابه النبي ﷺ: « أبوك حذافة »، إن الإحساس
بانقطاع النسب عقدة اجتماعية، سببها الإحساس بالجهل
بالذات اجتماعياً، لا وجودياً؛ ولذلك فقد جاء في رواية
مسلم لهذا الحديث: (فأنشأ رجل من المسجد كان يلاحي
فيديعى لغير أبيه فقال: يا نبي الله من أبي؟)؛ أي أنه كان إذا
خاصمه أحد من الناس؛ سبه وعيره بنسبته إلى غير أبيه!
فكان ذلك يحزنه ويعقده، فلم يستطع أن يكتم رغبته الجامحة
في معرفة حقيقة نسبه، رغم ما شهد من رهبة اللحظة،
وخوف الصحابة من غضب النبي ﷺ! وكم شهدنا من
الناس من أنفق ما أنفق من الأموال والأعمار؛ من أجل

اكتشاف والده، أو أي أحد من عشيرته، أو أي خيط - مهما
بعد، أو ضعف - من خيوط نسبه، أو من له صلة بذلك من
الناس، عساه أن يصله بحقيقة نفسه، ولو توهماً!

تبصرة:

غريب أمر هذا الإنسان: كيف يجهد لعرفة حقيقته
الاجتماعية، ولا يجهد ذلك الجهد وأقصى؛ لعرفة حقيقته
الوجودية!

إن الذي ينصل إلى خطاب الفطرة في نفسه يسمع نداء
عميقاً، يترجم الرغبة في معرفة من أسدى إليه نعمة الوجود،
ألا ترى أن الإنسان مفظور على شكر من وصله بمعرفة؟
بل، إذن لم لا تسأل عن خلقك؟ لا تسرع في الإجابة!
لا تقل لي: إنني أعرف الله فأنا مسلم، فما هذا الذي نريد!

أنت مخلوق، هذه حقيقة وجودية، فلا أحد منا جاء إلى
الوجود بإرادته وقراره، من هنا كان الواجب الأول عليك
أن تبحث عن الله الخالق، بهذه الصفة، أعني صفة الخالقية؛
لأنها سبب مجئك إلى الكون، وإن كنت عدماً، ولذلك كان
أول حق لله رب الناس على الناس، وجب عليهم أداؤه
ابتداء: هو حق الخالقية، أليسوا مخلوقين؟ بل، إذن تعلق
بذمة كل مخلوق أن يشكر الخالق، من حيث هو ﷺ خلقه.

(١) رواه مسلم. (٤/١٨٣٢).

(الخلق) مفهوم من أغرب مفاهيم القرآن العظيم، ومن أكثرها استعصاء على الفهم والإدراك، فهو دال عموماً على: التكوين والإنشاء؛ إبداعاً واختراعاً؛ أي أنه خلق الخلق على غير مثال سابق، فتأمل هذه الحقيقة أولاً: (على غير مثال سابق) إنه تعالى فطرَ خلقه، وأنشأهم ولم يسبق له في ذلك نموذج يحتذى، فسبحانه وتعالى من خالق عظيم! فلقد كان تعالى ولم يكن قبله شيء، هو الأول بلا بداية، وهو الآخر بلا نهاية، جل شأنه، وتعالى جده، ولا إله غيره. تأمل كيف كان خلق الكون؟ كيف كان العدم - وما العدم؟ - ثم كان الوجود بأمر **﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾** [البقرة: ١١٧].

ثم تأمل كيف كان خلق آدم **النَّبِيُّ**؟ كيف صنع الله من الطين المتعفن بشراً سوياً؟ يفيض جمالاً وحيوية، عجباً، عجباً! كيف كانت كتل الطين في جسم آدم تتحول إلى شرائين، وشعيرات دموية، وعظاماً ولحماً طرياً؟ عجباً، عجباً! كيف تحول الصلصال في محاجره **النَّبِيُّ** بصرًا ييرق، ويشع بنور الحياة، ويرى الألوان والأشياء، ويسهل بالدموع فرحاً وحزناً؟ عجباً، عجباً! كيف تخلق التراب في ججمته دماغاً مائعاً مارجاً؟ متكوناً من ملايين الخلايا اللطيفة الحساسة، تجري شعيراتها بالدم الدافق، وتحتزن ملايين المعلومات والذكريات، وتتأهب للتفكير في أدق الخطارات والنظارات؟ عجباً، عجباً!

ثم تأمل: كيف جعل من الطين والماء نباتاً جميلاً، فصارت

له أزهار تملأ الأنوف عبيراً أخاذًا، وثماراً تملأ القلوب بهجة وجمالاً؟ كيف خرج عنقود العنبر الطري الندي، من عود خشن وماء وطين؟ ثم كيف خرج الوليد من بطن أمه، من بعد ما تخلق بأمر الله من ماء مهين، ماء نكرهه فطرة، ونعتسل منه، ماء وسخ، وما حوله وسخ، وطرايقه وسخة، فخرج منه طفلاً أو طفلاً تشع بالجمال وتتدفق بالحياة؟ عجباً، عجباً! تماماً كما أخرج الله اللبن من بين فرث ودم؛ شراباً صافياً البياض لذيداً. تدبر قوله تعالى: **﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَمِ لِعِرَةَ شَقِيقَكُمْ إِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَابِعًا لِلشَّرَبِينَ﴾** [٦٦] وَإِنْ ثَمَرَتِ الْنَّخِيلُ وَالْأَعْنَبِ نَتَخَذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لِآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقُلُونَ

[النحل: ٦٦، ٦٧] عجباً، عجباً! يا صاح، فتدبر ثم أبصر!

ذلك هو (الخلق) الذي تحدي به رب العالمين كلَّ العالمين، فقال: **﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾** [النحل: ١٧]، وقال تعالى: **﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلُمَا فَاسْتَعِمُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا وَلَوْ أَجْتَمَعُوا لَهُ إِنَّ يَسْلِمُهُمُ الْذَّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَقِدُهُ مِنْهُ ضَعْفُكَ الظَّالِمُ وَالْمَطْلُوبُ﴾** [٢٣] **﴿مَا كَدَرُوا اللَّهُ حَقَّ قَدْرُهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوْيٌ عَزِيزٌ﴾** [الحج: ٧٣، ٧٤].

وهذه حقيقة قرآنية كبرى، تترتب عليها أمور كبيرة في حياة الإنسان، وجوداً وعدماً: ذلك أنه كلما نادى الله الناس في القرآن بالاستجابة لأمره التعبدى، ناداهم من حيث هو (خالقهم)، هكذا بهذه الصفة دائمًا، وهو أمر مهم فيها نحن

فيه من طريق المعرفة بالله، أي أنه تعالى يسألهم أداء حق الخالقية، هذه الصفة العظيمة لذاته تعالى، التي بها كنا نحن الناس هنا في الأرض نتنفس الحياة.

تدبر قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبِّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَهُلَكُمْ تَسْقُونَ ⑯ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَشًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الْأَرْضِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ⑯ ﴾ [البقرة: ٢٢، ٢١].

وتدبر قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَتَقُولُوْرِبِّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَقِسٍ وَجْدَهُ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ [النساء: ١].

هاتان آيتان كليتان من القرآن العظيم، تعلق الأمر فيها بالعبادة والتقوى، وما في معناهما من الانتظام في سلك العبادين، وفلك السائرين إلى الله رب العالمين، إثباتاً لحق الله من حيث هو خالق لشجرة البشر، ولا يفتأ القرآن يذكر بهذه الحقيقة، باعتبارها مبدأ كلياً من مبادئ الدين والتدبر، وأنها العلة الأولى منه، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ لِلْجَنَّ وَالْإِنْسَنَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فكثيراً ما يردد الناس هذه الآية، ولكن قليلاً جداً ما يتذرونها. إنها آية كونية عظمى.. إنها مفتاح من مفاتيح فهم القرآن العظيم، وباب من أبواب معرفة الربوبية العليا، تأمل قوله تعالى: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ⑯ وَقَدْ خَلَقْتُ أَطْوَارًا ﴾ [نوح: ١٤، ١٣]. انظر كيف ربط حقه تعالى على عباده بمبدأ خلقهم أطواراً..

فكلياً ازداد الكفار تعنتاً ازداد القرآن إفحاماً، في بيان تفاصيل الخلق، فتلك حجة الله البالغة إجمالاً وتفصيلاً.

تدبر معنى هذه الآيات واحدةً واحدةً.. قال تعالى في حق الكافر الذي أنكر البعث على محمد ﷺ، فجاء بطحين عظام ميتة نخرة، ونفع فيها فتطاير غبارها من يده، فاستهزا متسائلاً بما حكاه عنه القرآن الكريم، قال: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۚ قَالَ مَنْ يُحْكِي الْعِظَلَمَ وَهِيَ رَوِيمٌ ⑯ ۚ قُلْ يُحْكِيَهَا الَّذِي أَشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيهِ ۚ ⑯ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَشْجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوَقِّدُونَ ⑯ أَوْلَيْنَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْدِرُ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلُقُ الْعَلِيمُ ۚ ﴾ [يس: ٧٨-٨١].

وتأمل كيف أن تلك كانت هي حجة موسى الذي صنعه الله على عينه، في رده على فرعون؛ إذ تعنت في إنكاره، قال تعالى: ﴿ قَالَ فَمَنْ زَيْكُمَا يَمْوُسِيٌّ ⑯ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [طه: ٤٩، ٥٠]، إنه تعريف للربوبية والحقوقها في عبارة من أوجز العبارات الربانية المسطورة في القرآن الكريم.. فتدبر.. ﴿ الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [طه: ٥٠].

وجاءت الحجة الربانية في بيان الأطوار الوجودية للإنسان أيضاً في قوله تعالى: ﴿ قُتِلَ الْإِنْسَنُ مَا أَكْفَرَ ⑯ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ⑯ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ⑯ ثُمَّ أَتَبَيَّلَ يَسْرُهُ ⑯ ثُمَّ أَمَانَهُ، فَأَفْرَهُ ⑯ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ⑯ كَلَّا لَمَّا يَقْضَ مَا أَمْرَهُ ﴾ [عبس: ١٧-٢٣].

وقال في سياق التمهيد لقصص بعض الأنبياء، ودحض حجج المنكرين للبعث: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا إِلَانِدَنَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ١٥ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ١٦ ثُمَّ خَلَقْنَا الْنُطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْعَكَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْعَكَةَ عَظِيمًا فَكَسَوْنَا الْعَظِيمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا أَخْرَى فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَلَقَينَ ١٧ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمْ يَسْتَوْنَ ١٨ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبَعَثُونَ ١٩ [المؤمنون: ١٢ - ١٦]، تأمل: ما بال هذا البيان والتفصيل لقضية الخلق؛ لو لا أنها قضية كونية كبرى، يبني عليها ما يبني من مصير وجودي في حياة الإنسان، هذا المخاطب بها ابتداء؟

وانظر إلى هذا السؤال الإنكارى الرهيب، عن الوظيفة الوجودية للإنسان إذ تمعن بمنتهى الخلق، ثم غفل عنها وتناسها.. اقرأ وتدبر جيداً، واقرأ وأعد القراءة مرة وأخرى؛ لعلك تبصر.. قال جل جلاله: «أَيَخْسِبُ إِلَانِسْنَ أَنْ يُرَكِّسَ سُدَى ٢٠ إِنَّمَا يُنْطَفَةً مِنْ مَنْ يُمْتَنَى ٢١ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَى ٢٢ فَعَلِمَ مِنْهُ الرَّوْجَيْنِ الْذَّكَرِ وَالْأُنْثَى ٢٣ أَلَيْسَ ذَلِكَ يُقَدِّرُ عَلَى أَنْ يُحْكِيَ الْمَوْقَنَ ٢٤ [القيمة: ٣٦ - ٤٠] .

وكما كانت تلك هي حجة القرآن في الدعوة إلى العبادة، وإثبات حق الخالقية لله الواحد القهار؛ كانت هي عينها حجته في الدعوة إلى التوحيد ونفي الحق الوهمي للشركاء، وذلك كما في قوله تعالى: «أَلَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُسْتَكِمْ ثُمَّ يُحْكِمْ هَلْ مِنْ شُرَكَاءِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ ثُبَحَنَهُ وَتَعَلَّى عَمَّا يُشَرِّكُونَ ٢٥ [الروم: ٤٠] ، وقال: «أَيْشُرُكُونَ مَا

لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ ٢٦ [الأعراف: ١٩١] ، وقال: «أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَدَكَّرُونَ ٢٧ [النحل: ١٧] .. إنه قول ثقيل جداً، فتدبر.. ثم أبصر!

ومن أثقل الآيات القرآنية، وأعمقها دلالة على الموقع الوجودي للإنسان من الخلق؛ قوله تعالى: «هَلْ أَنَّ عَلَى إِلَانِسْنِ جِينٍ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ٢٨ إِنَّا خَلَقْنَا إِلَانِسْنَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجَ بَتَّئِيهٍ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ٢٩ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ٣٠ إِنَّا أَعْنَدْنَا لِلْكَفَرِينَ سَلَسِلًا وَأَغْلَلًا وَسَعِيرًا ٣١ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشَرُّونَ مِنْ كَلَّمَ كَانَ مِزاجُهَا كَأَفُورًا ٣٢ [الإنسان: ١ - ٥] ، ولنا مع هذه الآية وقفه تدبر آتية بحول الله.. إلا أن المهم الآن أن ثبت لك أولاً؛ أن (قضية الخلق) تمثل مفتاح فهم الربوبية، والمعنى الوجودي والوظيفي للإنسان، ولو لا خشية الإطالة لبيت لك من خلال كل سور القرآن بدون استثناء؛ أنها المبدأ الكلي الذي على أساسه خاطب الله الإنسان بكل أمر ونهي، بل إنها تمثل البنية الأساسية لخطابه، الذي عليه يتفرع كل شيء، مما قرره في العقيدة والشريعة على السواء.

- ولتبسيط الأمور؛ ننطلق عملياً من آيتين مما أوردنا من كتاب الله نجعلها محور قضيتنا، ونفسر في ضوئها كل الآيات الأخرى؛ نظراً لشمولية البيان فيها، أو لغوصه إلى أعمق ما في مسألة الخلق من أبعاد كونية.

فأما الآية الأولى فقوله تعالى - مما سبق إيراده - من سورة

البقرة: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ أَعْبُدُ وَأَرْبِكُ الَّذِي خَلَقْتُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الْثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا يَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢]، أنت ترى أن الله جعله يأمر الناس بعبادته بصفته خالقا لهم: ﴿أَعْبُدُ وَأَرْبِكُ الَّذِي خَلَقْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢]، ثم مكن لهم العيش في عالم هيع أصالحة لاستقبالهم: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الْثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢]، فإن إشاء كل هذا إنما هو لكم) لا لغيركم. فالمستفيد منه بالقصد الأول إنما هم الخلق، والإنسان خاصة، وهناك تعبير صريح في القرآن عن هذا، وذلك قوله تعالى بُعيد آيات في السورة نفسها: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّلَهُنَّ سَبَعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ يَكُلُّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]، ثم قال بعد مباشرة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

- فَخَلَقَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا كَانَ مِنْ أَجْلِ الإِنْسَانِ بِصَرِيحِ عِبَارَةِ الْقُرْآنِ، ثُمَّ كَانَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِنَاءً فَوْقَ الْأَرْضِ سَقْفًا لَهَا، ﴿سَقْفًا مَحْفُظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ خَلْقُ الإِنْسَانِ، ثُمَّ سَخَرَ كُلُّ مَا بَيْنِهَا لِخَدْمَتِهِ: ﴿أَلَمْ تَرَوْ أَنَّ اللَّهَ سَخَرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ، ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، وقد مهدت له كل أسباب الحياة والعمaran، إنه تدبير رحيم، وتكريم عظيم، لهذا الإنسان، من حيث هو إنسان، كما قال

سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنَى آدَمَ وَهَمَنَتْهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيْبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَقْضِيَلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، فالأمر الوارد إذن في سورة البقرة: ﴿أَعْبُدُ وَأَرْبِكُ﴾ [البقرة: ٢١] جاء في سياق قصة الخلق الأول والاستخلاف الرباني للإنسان في الأرض. وهذا منطقى مهم لفهم حقيقة الإنسان، وطبيعة العبادة المطلوبة منه لله رب العالمين.

فالغلاف الكوني كله في خدمة الإنسان خلقاً وتسخيراً.

ومن هنا كان الشرك ظلماً عظيماً؛ لأن الله هو وحده الذي خلق، وبهذا المنطق وجب أن يكون هو وحده الذي يعبد، وأي إخلال بهذا الميزان يكون ظلماً كبيراً، وهو قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْشَّرِكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وبهذا المنطق أيضاً نقم الله على المشركين، كما سبق من مثل قوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١]، وقوله سبحانه: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَرَكَوْنَ﴾ [النحل: ١٧].

تبصرة:

إن جماع الأمر في هذه النصوص كلها أنه تعالى: خلقنا وخلق لنا، هذا مبدأ قرآنى كوني عظيم وجب تدبره.. وهو ما سميـنا به: (حق الحالـقـية)؛ فـتأملـ!

وأما الآية الثانية فهي قوله تعالى - مما سبق ذكره أيضاً - من سورة الإنسان: ﴿هَلْ أَنَّ عَلَى إِنْسَنٍ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ

شَيْئاً مَذْكُورًا ① إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَنَ مِنْ نُطْفَةٍ أَتَشَاجِبُ بَنَتِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَيِّعًا بَصِيرًا ② [الإنسان: ٢، ١]. وإنها من أعظم الآيات القرآنية الباهرة! آية تلاً القلب هلعاً ووجلاً، تدبر معنى كيف أن الإنسان دأب على التذكر والتفكير في الزمان، من عمره الفردي والاجتماعي، سواء تعلق ذلك بالماضي أو الحاضر أو المستقبل، ولا شيء بعد ذلك.

والمقصود بالعمر الفردي، وحدة العمر المعروفة بالنسبة لكل فرد من الناس في نفسه، فالإنسان في هذه الحال يفكر بطبيعة في الماضي، وهو التذكر والذكريات، ويفكر في الحاضر وهو هم المعاش والحياة اليومية والأعمال الحالية، ويفكر في المستقبل وهو التخطيط والتدبير لقبل الأيام، وهو ما يحدوه من حياته طول الأمل والطموح، وهو على هذا حتى يموت، هذا هو الإنسان من الناحية الزمانية.

وأما العمر الاجتماعي فالمقصود به التفكير الجماعي في الماضي، وهو علم التاريخ الذي قد يدرس فيه الإنسان مرحلة ما قبل ماضيه الشخصي، لكنه ماضي الإنسان الاجتماعي على كل حال، كما أنه قد يفكر في زمانه الحاضر والمستقبل، وهو شأن مؤسسات الدولة والمجتمع في التخطيط والتدبير السياسي والاقتصادي والاجتماعي العام.

والإنسان في جميع الأحوال المذكورة إنما يفكر في شيء واحد هو (أنا)، بمعناها الفردي والاجتماعي. والعجيب

في الآية المذكورة أنها أرشدته، بل أيقظته بأسلوب التنبيه إلى التفكير في مرحلة ما قبل العمر.. وهو مجال يندر جداً أن يطرق بال الفكر البشري، على المستويين الفردي والجماعي على السواء.

هل سألت نفسك مرة: أين كنت أنت بالذات: (فلان ابن فلان، أو فلانة)، قبل أن يتزوج أبوك بأمك؟ سل نفسك إذن؟ أو أين كان الإنسان - بالمعنى الجماعي - قبل أن يخلق الله آدم عليه السلام؟ وللتبسيط ابق في السؤال مع نفسك فقط، وتفكر!

تذكر تاريخ ميلادك؟ قبل ذلك بستة، أين كنت؟ وماذا كنت؟

تلك مرحلة ما قبل العمر.. فكيف تفسرها؟ وكيف تتصورها؟ ③ هَلْ أَقَّ عَلَى الْإِنْسَنِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُورًا ④ [الإنسان: ١]؟ إنك لن تستطيع تصور شيء ولا تخيله؛ لأنه عدم، والعدم لا يمكن تخيله، إذ لو أمكن تصوره - حتى ولو بمجرد الخيال - لكان من الممكنات. وعلم ذلك غير ممكن إلا الله العليم الخبر، عليه السلام فهو وحده ⑤ يُكِلُّ شَيْئاً عَلِيمًا ⑥ [البقرة: ٢٩].

- المهم هنا عندنا أن تدرك أنك لم تكن ثم كنت. وهذا فضل عليك من الله الذي قال لك: كن! فكنت! أي خلقك

ولم تكن شيئاً مذكوراً.. لا شيء أنت حينئذ، لا ذكر لك.
واللا شيء لا اسم له ولا مفهوم ليذكر، لا في المكنات
الشيئية، ولا في المدركات الذهنية.

ألم يكن مكناً ألا تكون؟ بلى، لأن الله خلقك بإرادته،
وبمشيئته تعالى، وكما يشاء للشيء أن يكون فقد يشاء للشيء
ألا يكون، فهو سبحانه يتصرف في أمره وكونه كما يشاء
ويختار. وما ينقص من كون الله العظيم لو أنك أنت -
يا فلان بن فلان - لم تكن فيه؟ طبعاً لا شيء، لا شيء. هذا
البشر متذليله، طولاً وعرضًا، يملأ الآفاق الأرضية في
كل مكان.

ثم كنت يا صاح برحمة الله وفضله، كنت بعد ذلك شيئاً
مذكوراً، فتتذكر، وتتبرأ: **﴿هَلْ أَقَى عَلَى الْإِنْسَنِ حِينَ مِنَ الظَّهَرِ لَمْ يَكُنْ
شَيْئاً مَذْكُوراً﴾** [الإنسان: ١]، إن هذه الآية العظيمة هي من أثقل
الآي القرآني حملًا على الإنسان! والقرآن العظيم -
لو تدبرت - ثقيل كله، قال تعالى: **﴿لَوْأَنَّ لَنَا هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَى جَبَلٍ
لَرَأَيْتَهُ، خَشِعَ مَصَدِّدًا مِنْ حَشِيشَةَ اللَّهِ وَتَلَكَ الْأَمْثَلُ نَصَرِّهَا لِلنَّاسِ
لَعَلَّهُمْ يَنْفَكِرُونَ﴾** [الحشر: ٢١]، وقال سبحانه: **﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ
قَوْلًا تَقِيلًا﴾** [الزمر: ٥]، وثقل آية الإنسان الذي لم يكن فكان،
راجع - فيما هو راجع إليه - إلى ما يترتب على الوعي بهذه
الحقيقة من أعباء الحق الإلهي العظيم، حق الخالقية، أليس لم
تكن ثم كنت؟ بلى، إذن تعلق بذمتك حق الذي كان له الفضل

وحده في ذلك، الذي خلقك، ومن هنالك جاء قوله بعد في
السورة مباشرة: **﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَنَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجَ تَبَتَّلَتِهِ
فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾** [الإنسان: ٢]، وعلى هذا الوزان من
الاعتراف بهذا الحق، والشكر له أو عدمه، كانت الجنة والنار،
وتفرق أصناف الخلق بينها أبراراً وكفاراً، كما هو في تتمة
الآيات من سورة الإنسان، وغيرها من آيات القرآن كثير.

تبصرة: حق الخالقية إذن هو مفتاح المعرفة بالله:

إن هذا الحق بقدر ما هو متعلق بذمة الإنسان، لربه الذي
خلقه، فإنه يستفيد منه معنى عظيمًا لوجوده، إن إحساسه
بوجوب هذا الحق عليه يخرجه من التيه الوجودي، الذي
ضاعت فيه أفكار الكفار من العالمين، أو بعبارة قرآنية:
يخرجه **﴿مِنَ الظُّلْمَنَتِ إِلَى النُّورِ﴾** [البقرة: ٢٥٧]. وأي ظلام أشد
من التصور العبشي للحياة! أو كما قالوا: (إن هي إلا أرحام
تدفع وأرض تبلغ!) فبأي نفسية يعيش الإنسان هذه الحياة،
وهو يرى أنها غايتها إلى العدم المطلق والفناء الرهيب، الذي
ما بعده من حياة؟ فأي لذة يجدوها في متعها وهو يعتقد أنها إلى
زوال قريب؟ ذلك ما يقوده غالباً إلى الشره المتتوحش في
تناولها، أو إلى العزوف القلق ثم الانتحار! ألا ما أشد وحشة
الكفر والضلال! فالحمد لله الذي عافانا مما ابتلى به آخرين.

إن معرفة الله من هاهنا تبدأ، الشعور بالفرح به تعالى
ريًّا خالقاً، والأنس بجماليه **﴿إِلَهًا رَحِيمًا﴾**؛ فيمتلئ القلب شوقاً

إليه تعالى، ثم تنشط الجوارح للسير إلى بابه الكريم، والعروج إلى رضاه، عبر مدارج السالكين، ومنازل السائرين، فيجد الإنسان الأنس كل الأنس كلما ازداد معرفة بالله جل جلاله.

وإنما مدارج المعرفة به تعالى أن ينطلق المسلم من توحيد الربوبية، الذي ينفتح بابه على العبد أول ما ينفتح من الشعور بحق الخالقية كما قررناه، ذلك أن الرب إنما هو رب من حيث هو مالك للمربيوب، ذلك معناه العام في اللغة وفي الشرع، قال ابن منظور: (الربُّ: هو الله تَعَالَى، هو ربُّ كلِّ شيءٍ: أي مالكُه، وله الْرُّبُوبِيَّةُ على جَمِيعِ الْخَلْقِ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَهُوَ ربُّ الْأَرْبَابِ، وَمَالِكُ الْمُمْلُوكِ وَالْأَمْلَاكِ). ولا يقال الربُّ في غير الله، إلا بالإضافة (...) وَرَبِّيْهِ يَرِبِّيْهِ رَبِّيْهِ مَلِكَهِ^(١).

فرب الدار: مالكها، وربة البيت: سيدته، ورب السيارة: صاحب السيادة عليها. إلا أن (الملائكة) الحقة، إنما تقع في الواقع على من يملك أصل الابتكار والإبداع، إنشاء وتطويراً. ذلك هو المالك الحقيقي للشيء، وذلك هو الله تَعَالَى في ربوبيته للكون والخلق أجمعين. إنه مالك كل شيء خلقاً وإبداعاً، وزيادة ونقصاً، وإحياء وإماتة، وبداء وإعادة، وبعثاً ونشروراً. وما كان ذلك كله ليكون لو لا أنه هو تَعَالَى الذي خلق.

ومن هنا كان أول وصف لذاته تعالى، نزل على محمد ﷺ،

(١) لسان العرب، مادة: (رب).

في بدء تعريفه بالله ربّا: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، فهو رب إذن، وأول ما وصف به نفسه تعالى أنه: ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ ؟ لأن الربوبية إنما ترجع في حقيقتها إلى هذا المعنى كما بيناه آنفاً. ومن هنا اطراد هذا المبدأ في القرآن الكريم، حتى لا تكاد تخلو سورة منه، بدءاً بالفاتحة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ حتى سورة الناس: ﴿قُلْ أَعُوْذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾. فالقرآن كله إذن قائم على ترسیخ مفهوم الرب في قلوب المربوبيين، عسى أن تستجيب فطرهم لأداء حق الربوبية، بتوحيد الألوهية عبادة الله رب العالمين.

وخلاصة الأمر: أن الخالق مالك، وأن المالك رب، ذلك أنه تعالى خلق فملك، وملك فرب. فهذه معان بعضها يحيل على بعض، حتى كان لفظ (الرب) جماعها؛ فجمع بذلك كل أوصاف الكمال والجمال والحلال، من الأسماء الحسنية والصفات العلو.

- ولتنصت الآن في ذلك إلى القرآن العظيم، حيث يقول الله تَعَالَى معرفاً بذاته سبحانه: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الحشر: ٢٤]، فقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ﴾ جملة اسمية من مبتدأ وخبر، فيها معنى الجواب عن سؤال تقديره: سؤال السائل عن الرب (من هو ؟)، فقال: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٤٢]؛ أي (الرب هو الله)؛ لأن الضمير (هو) لا بد أن يعود على معاد سابق، كما قال الله حكاية لخوار فرعون مع موسى وهارون: ﴿فَالَّذِي زَيْدُكُما

يَنْمُوسَى ﴿١﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَنِي كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ تُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٤٩، ٥٠].

وَكَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١].

ثُمَّ كَانَتِ الإِحَالَةُ - فِي نَهَايَةِ الْأَمْرِ - فِي تَعْرِيفِ الرَّبِّ عَلَى (الْأَسْمَاءِ الْحَسَنَى)، بَعْدَمَا ذُكِرَ بَعْضُهَا، فَقَدْ جَاءَتِ الْآيَةُ الْمُذَكُورَةُ مِنْ سُورَةِ الْحَسْرَى فِي سِيَاقِ التَّعْرِيفِ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنْ خَلَالِ بَعْضِ أَسْمَائِهِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَدَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقَدُوْسُ الْسَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمَهِيمُ الْعَزِيزُ الْجَبَارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشَرِّكُونَ﴾ ﴿٢﴾ هُوَ اللَّهُ الْحَكِيمُ الْبَارِئُ الْمَصْوِرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحَسَنَى يَسِّعُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الْحَسْرَى: ٢٢-٢٤].

تَبَرَّضَةً:

فَالْأَسْمَاءُ الْحَسَنَى هِيَ مَدْخَلُ التَّعْرِيفِ بِاللَّهِ رَبِّاً، وَهُوَ تَوْحِيدُ الرَّبُوبِيَّةِ، كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَاتِ، وَهِيَ كَذَلِكَ مَدْخَلُ التَّعْرِيفِ بِهِ إِلَهًا، وَهُوَ تَوْحِيدُ الْأَلْوَهِيَّةِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿وَلَلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحَسَنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الْأَعْرَافِ: ١٨٠].

وَمِنْ هَنَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحَسَنَى: «إِنَّ اللَّهَ تَسْعَةُ وَتَسْعِينَ اسْمًا - أَعْطَى مائةً إِلَّا وَاحِدًا - مِنْ أَحْصَاهَا دَخْلَ الْجَنَّةِ. إِنَّهُ وَتَرِ يَحْبُّ الْوَتَرَ»^(١). وَفِي رَوْيَةٍ: «مِنْ حَفْظِهَا دَخْلٌ

(١) متفق عليه.

الْجَنَّةُ»؛ يَعْنِي: إِنَّ اللَّهَ تَسْعَةُ وَتَسْعِينَ اسْمًا. وَفِي الْحَدِيثِ دَلَالَةٌ عَلَى عَدْمِ حَصْرِ أَسْمَائِهِ فِي هَذَا الْعَدْدِ، لِقَوْلِهِ: (أَعْطَى)، فَهَذَا لَفْظُ ظَاهِرِهِ دَالٌّ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى غَيْرُهَا مَا لَمْ يُعْطِ وَاسْتَأْثَرْ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عَنْهُ، كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي السُّنْنَةِ. فَقَدْ أَعْطَى مَا أَعْطَى وَمَنْعَ ما مَنَعَ؛ لِحَكْمَةِ هُوَ جَلٌّ وَعَلَا يَعْلَمُهَا.

وَزَادَ التَّرْمِذِيُّ وَالْحَاكمُ وَغَيْرُهُمَا فِي الْحَدِيثِ تَفْصِيلًا فِي عَدْهُ أَسْمَاءَ، نَذَرُكُهَا جَمِيعًا لِبَرَكَتِهَا وَلِحَاجَتِنَا إِلَيْهَا، فَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ، الرَّحِيمُ، الْمَلِكُ، الْقَدُوْسُ، الْقَدُوسُ، السَّلَامُ، الْمُؤْمِنُ، الْمَهِيمُ، الْعَزِيزُ، الْجَبَارُ، الْمُتَكَبِّرُ، الْحَالِقُ، الْبَارِئُ، الْمَصُورُ، الْغَفَارُ، الْقَهَّارُ، الْوَهَابُ، الرَّزَاقُ، الْفَتَّاحُ، الْعَلِيمُ، الْقَابِضُ، الْبَاسِطُ، الْخَافِضُ، الرَّافِعُ، الْمَعْزُ، الْمَذْلُ، السَّمِيعُ، الْبَصِيرُ، الْحَكَمُ، الْعَدْلُ، الْلَّطِيفُ، الْخَبِيرُ، الْحَلِيمُ، الْعَظِيمُ، الْغَفُورُ، الشَّكُورُ، الْعَلِيُّ، الْكَبِيرُ، الْحَفِيظُ، الْمُغَيْثُ، الْحَسِيبُ، الْجَلِيلُ، الْكَرِيمُ، الرَّقِيبُ، الْمَجِيبُ، الْوَاسِعُ، الْحَكِيمُ، الْوَدُودُ، الْمَجِيدُ، الْبَاعِثُ، الشَّهِيدُ، الْحَقُّ، الْوَكِيلُ، الْقَوِيُّ، الْمُتَّيْنُ، الْوَلِيُّ، الْحَمِيدُ، الْمَحْصِيُّ، الْمَبْدِئُ، الْمَعِيدُ، الْمَحْيِيُّ، الْمَمِيتُ، الْحَيُّ، الْقَيْوُمُ، الْوَاجِدُ، الْمَاجِدُ، الْوَاحِدُ، الْصَّمَدُ، الْقَادِرُ، الْمَقْدِرُ، الْمَقْدَمُ، الْمَؤْخَرُ، الْأَوَّلُ، الْآخِرُ، الظَّاهِرُ، الْبَاطِنُ، الْوَالِيُّ، الْمَتَّعَلِيُّ، الْبَرُّ، التَّوَابُ، الْمَتَّقِمُ، الْعَفْوُ، الرَّؤُوفُ، مَالِكُ الْمَلَكِ، ذُو الْجَلَالِ، وَالْإِكْرَامُ، الْمَقْسُطُ، الْجَامِعُ، الْغَنِيُّ، الْمَغْنِيُّ، الْمَانِعُ، الْضَّارُّ،

النافع، النور، الهدى، البدىع، الباقي، الوراث، الرشيد،
الصبور «^(١)».

قلت: إن جماع توحيد الربوبية يؤول إلى إثبات الأسماء والصفات لله رب العالمين، إثبات إيمان وتسليم، لا ينحرف به تأويل، ولا يزيغ به تعطيل، ولا يخرمه تشيه أو تجسيم. فهو تعالى **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ، شَفَّاعٌ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾** [الشورى: ١١]، فلا ينسب شيء من الخلق والتدبر في الكون إلا له سبحانه، وحده دون سواه، ولا يعتقد شيء من النفع والضر والعطاء والمنع والحياة والموت؛ يصل الكائنات من غيره تعالى، فكل الأسماء الحسنية والصفات العلي دلت على تفرده سبحانه بمقتضياتها من الفعل والأمر، لا دخل لأحد من خلقه في ذلك إلا بإذنه تعالى، تدبر - ثم تدبر - قوله تعالى: **﴿أَللّٰهُ لَا إِلٰهَ إِلٰهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْقَوِيمُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْهُ إِلَّا إِيَّاهُنَّ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمْ وَهُوَ عَلٰى الْعَظِيمِ﴾** [البقرة: ٢٥٥].

ذلك هو توحيد الله في ربوبيته أي في مالكيته للكون وحالقيته له، وذلك هو المنطلق السليم، والأساس القويم لتوحيد الألوهية، كما ذكرنا، وبقدر تصفية ذلك يكون السير في طريق المعرفة الربانية، والرقي في مدارج الإيمان،

لأداء حق الخالقية، حيث إن توحيد العبودية، أو الألوهية كلها لا يخرج عن معنى السير إلى الله رغباً ورهباً، من حيث إنه تعالى موصوف بصفات الكمال وأسماء الجمال، وبهذا السير تتحقق للعبد رتب المعرفة به تعالى، ويكتسب الجديد من منازل الإيمان، ومقامات الإحسان، سيراً في طريق عبادته تعالى على نهج السنة النبوية؛ استجابة لقوله تعالى: **﴿وَأَعْبُدُ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾** [الحجر: ٩٩].

وهنا نعود إلى حديث الأسماء الحسنية، حيث يتبين أن قول النبي ﷺ: (من أحصاها - أو من حفظها - دخل الجنة) إنما المقصود بالإحصاء (الحفظ) عينه، كما هو في صحيح البخاري في (باب إن الله مائة اسم إلا واحداً)، وقد ذهب أغلب العلماء - كما سترى بحول الله - إلى أن (الحفظ) هنا هو بمعنى حفظ المقتضيات من الأفعال والتصيرات، لا حفظ العبارات، كما في قول النبي ﷺ: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك» ^(١). والمقصود بحفظ المقتضيات: توقيع كل أعمالك وتصرفاتك بما تقتضيه دلالاتها من حدود والتراamas.

فمثلاً إذا انطلق العبد في طلب رزقه، واكتساب قوته فإنها يفعل ذلك باسمه تعالى: (الرزاق)، ومعناه أن يعتقد ألا رزق يصل إليه إلا ما كتب الله له، ثم ألا مانع له منه وقد

(١) رواه الترمذى والحاكم بسنده صحيح. ن. صحيح الجامع الصغير: (٧٩٥٧).

(١) رواه الترمذى والحاكم في المستدرك.

كتبه الله له، ويكون لهذا - إن صح اعتقاده فيه - أثره الإيجابي، يجتهد كل يوم في تحصيله، فلا يساوم في دينه مقابل مال، عطاءً أو حرماناً، إذ وجد في معرفته باسم (الرزاق) أنه لا مانع لما أعطي ولا معطى لما منع.

وهو قصد من مقاصد حفظ (الاسم) من أسمائه الحسنى: الثبات على ذلك أمام الفتنة، لا تزحزحه المضائقات ولا المناوشات، ولا التهديدات، ولا تذهب به الوساوس كل مذهب، بل يسكن إلى عقيدته مطمئناً، آمناً من كل مكره، إلا ما كان من قدر الله، موقناً أن الله لا يريد به إلا خيراً. فذلك أمر المؤمن الذي ليس إلا مؤمن، والمؤمن أمره كله له خير كما في الحديث الصحيح؛ حيث قال عليه الصلاة والسلام: «عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر؛ فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر؛ فكان خيراً له» ^(١).

إنها عقيدة السلام والأنس الجميل بالله، وبقدر ما تسكن النفس إلى اسمه تعالى (الرزاق) يذوق العبد من معنى (الحفظ) جمالاً حميداً، وأنساً جديداً، فتعلو القدم بذلك في مراتب العبودية، وتوحيد الألوهية مقامات أخرى. والربانيون

في (حفظ) كل اسم من أسمائه الحسنى - بهذا المعنى - مراتب ومنازل، وبذلك يمتلى القلب جمالاً لجمال أنواره وجلال إفضاله تعالى، فيزداد شوقاً إلى السير في طريق المعرفة الربانية، التي كلما ذاق منها العبد جديداً ازداد أنساً وشوقاً، فلا تكون العبادة - بالنسبة إليه حينئذ - إلا أنساً، وراحة، ولذة في طريق الله، إذ تنشط الجوارح للتقارب إليه تعالى بالأوقات والصلوات، والصيام والصدقات، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكرات، والدخول في سائر أعمال البر الصالحات. ولذلك في أسماء الله الحسنى - من كل ذلك - مسالك تقربك إلى الله سبحانه وتوصلك إليه.

هذا هو الفهم الألائق بحديث الأسماء الحسنى، وهو ما ذهب إليه أغلب شراح الحديث عند تعرضهم لذلك؛ ومن هنا قال ابن حجر رحمة الله في الفتح: (وقال الأصيلي: ليس المراد بالإحصاء عدتها فقط؛ لأنه قد يعدها الفاجر، وإنما المراد العمل بها، وقال أبو نعيم الأصبهاني: الإحصاء المذكور في الحديث ليس هو التعداد، وإنما هو العمل، والتعقل بمعنى الأسماء والإيمان بها) ^(١).

وقال أيضاً: (وهو أن يعلم معنى كل في الصيغة، ويستدل عليه بأثره الساري في الوجود، فلا تمر على موجود

(١) فتح الباري: (١١/٢٢٦) نشر دار المعرفة بيروت: (١٣٧٩هـ) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب.

إلا ويظهر لك فيه معنى من معاني الأسماء، وتعرف خواص بعضها (...). قال: وهذا أرفع مراتب الإحصاء. قال: وتمام ذلك أن يتوجه إلى الله تعالى من العمل الظاهر والباطن؛ بما يقتضيه كل اسم من الأسماء^(١).

ذلك هو الشأن بالنسبة لسائر أسمائه الحسنى: الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن ... إلخ. فكلها (حسنى) بصيغة التفضيل المطلقة هذه؛ أي لا شيء أحسن منها، فهي تبث النور والسلام والجمال، في طريق السالكين إليه تعالى؛ بحفظها، وتملاً قلوبهم إيماناً وإحساناً. كما قال النبي ﷺ في الحديث: «إن الله تعالى آية من أهل الأرض، وأنية ربكم قلوب عباده الصالحين، وأحبها إليه ألينها وأرقها»^(٢).

تبصرة:

وهاهنا لنا لطيفة من لطائف الأسماء الحسنى، نذكرها بحول الله؛ رفعاً للغبış الذي قد يدور بخلد بعضهم، أو ما قد يلقيه الشيطان في خاطر العبد الذي لم يذق بعد جمال بعض الأسماء، من مثل أسمائه تعالى: (الجبار، والمتكبر، والقهار، والمتقم)، إن أول شيء يجب التذكير به أن هذه الأسماء - كسائر أسمائه تعالى - قد وصفها الله عزّ وجلّ في

القرآن بأنها (الحسنى)، على التفضيل، وفي هذا لطائف كثيرة. فبالنسبة إلى خصوص معانى التكبر والكبرياء والقهر والجبروت من أسمائه تعالى، فهي مما يشين الإنسان، ويلقي به في دركات الذم والنقص؛ لو اتصف بها، وتخلق بأحوالها، لكنها في ذات الله تعالى جلال وجمال، ونور وكمال، فهي (الحسنى)، نعم قد ورد الوعيد في حق من اتصف بها من الناس، كما في الحديث القدسي: «قال الله تعالى : الكبراء ردائي، والعظمة إزارني، فمن نازعني واحداً منها قدفته في النار»^(١).

وي بيانه أن الله عزّ وجلّ قصر ذلك الوصف عليه تعالى، ولم يأذن لأحد من خلقه في اكتسابه، وهو عزّ وجلّ وحده يليق به ذلك؛ بجلال قدره، وعظمة ملكته وسلطانه، فهو الملك الحق العدل، لا ينافي شيء من ذلك عدله ورحمته، بل إن وصف القهر والجبر والكبرياء في ذاته مصدر رحمة لعباده المؤمنين - وهذا من لطائف المسألة - حيث إن المؤمن حينما يتتسّب إلى الله عبداً، فإنه يكتسب من نسبة العبودية عزة ومنعة؛ إذ هو محمي من الظلمة والفحار؛ باسم الله الجبار القهار. وأنت حينما ترى في الأرض عبداً جاهلاً متكبراً؛ تدرك بسرعة أنه ينتحل ما ليس له، كيف يصدق تجبره وكبرياؤه؟

(١) رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه. وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير: (٤٣١).

(٢) فتح الباري: (١١/٢٢٦-٢٢٧).

(٣) رواه الطبراني، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير: (٢١٦٣).

وقد قال الله فيه: ﴿ وَخُلِقَ الْإِنْسَنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٨]، فكثيراً وذاك إنما هو صورة من ورق! إنه مرض نفسي، فهو تعبير عن الشعور بالنقص إزاء كمال حاوله فلم يصله، من الناحية الاجتماعية، أو المالية، أو السلطانية، أو أي جهة أخرى، فقد يكون الإنسان غنياً ذاته طائلة، فإذا تكبر دل ذلك على نقص من جهة أخرى، ربما ظن أن ماله يعنيه من كل وجه، فلما أدرك أنه لا يسد له حقيقة الكمال؛ استكبر فطغى وتجبر وظلم! إنك أيها العبد المتسب - بخضوعك وعبوديتك - إلى كبراء الله الحق، تشعر أن الكبراء الذي يتحله الخلق كذب وافتراء، بل مرض يستحق صاحبه الحسرة والإشراق! تماماً كما تشفق على من ألقى بيده إلى التهلكة بالكفر والضلال، على غرار قوله تعالى: ﴿ يَحْسَرُ عَلَى الْعَبَادِ ﴾ [يس: ٣٠]، فأما الجاهل فقد يرى الجبار من الناس أسدًا يزار في وجوه الخلق، وأما عبد الله فإنما يراه أسدًا من ورق، أو دمية (كرتونية) تحكي لعبه الأسد، والمتكبر من الخلق هو أول من يشعر - في نفسه - بضعفه، وعجزه، وفشله في أن يندمج في المجتمع، ويتواضع أمام الخلق، وما أصدق قول الشاعر في هذا:

ملأى السنابل تنحنني بتواضع

والفارغات رؤوسهن شوامخ

وأنت إذ ترى ما لا يرى الجهلة تستريح.. فقد عرفت أنها الكبراء والجبروت لله الواحد القهار؛ فكانت بذلك أسماؤه الحسنى: الجبار والمتكبر والقهار، ونحوها من أسماء الجلال، بردًا وسلامًا على قلوب عباده الصالحين، تبعث النور والجمال.. ولا عجب، فهي من (الأسماء الحسنى) حقًا وصدقًا. و﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٩٥] والله خير الصادقين.

وإنك حينما تذوق من معرفة الله لمعات وأنوارًا؛ يتعلق قلبك بحبه؛ لأنك إنما تجد الجمال الحق في تلك المعرفة. وقد قال الرسول ﷺ: «إن الله تعالى جميل يحب الجمال»^(١)، فمن ذاق؛ عرف، ومن عرف اشتاق. وليس عبئًا أن يكون ضمن السبعة الذين يظلمهم الله يوم القيمة، يوم لا ظل إلا ظله تعالى: (رجل قلبه معلق في المساجد)^(٢). ولا يتعلق القلب إلا إذا أحب، ولا يحب إلا من شهد الجمال. وإنما ترى جمال الله جل جلاله في شعورك القوي بجمال خالقك تعالى، وكمال قيوميته، وحسن إجادته، وكرم رعايته، وقرب رحمته وأنسه، فاقرأ الجمال في كلمات الله إذ يقول: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عَبْدًا يَعْتَقِي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلَيَسْتَحِبُّوا لِي وَلَيَوْمَ مُنْوَى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

إن العبد الذي أيقن بمعرفة الله، يفيض قلبه بالحبة، محبة

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

كل شيء، إذ يجد أخوة إيمانية في وجدانه مع كل شيء من الكائنات - عدا شياطين الجن والإنس - فالكل مستغرق في عبادة الله، سائر إليه عبر مسالك المحبة: ﴿تُسَبِّحُ لِهِ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا يَنْفَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]، ولقد جعل الله لنبيه داود معجزة كشف لبعض ذلك، فكانت الجبال والطير تسبح بتسبيحه وتدعوه بدعائه، في مجالس تفيض بالنور والجمال، تلتقي على موعد بالغدو والآصال، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَنَاهُ لِجَبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحُ بِالْعَشَّيِ وَالْإِشَّرَاقِ وَالْطَّيْرُ مَحْشُورٌ كُلُّهُ لَهُ أَوَابَةٌ﴾ [ص: ١٩، ١٨] .

إن الكون كله في وجدان المسلم مثل طيور داود الصليل، مجالس أنس وذكر، تشعره بالأخوة الكبرى، في السير إلى الله عبر أفلال العبودية: ﴿كُلُّ فِلَكٍ يَسْبُحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، وأنت أيضاً يا صاح تسبح عبر فلك العمر سيراً إلى الله ذي الجلال والجمال، تتعرف إليه من خلال هذا كله، إذ تجده سبحانه تجاهك، كلما ذكرت أو دعوت، متسبباً إليه تعالى بعبوديتك، وذلك أعظم معنى لوجودك في الحياة.. فتأمل! وتلك غاية الغايات من الخلق كما ذكرنا: ﴿وَمَا حَكَمْتُ أَنْجَنَّ وَالْإِنْسَانَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ﴾ [الناريات: ٥٦] .

والمعرفة طريق لا تنفذ تحلياتها، ولا تنتهي إشراقاتها إلا بلقاء الله، حيث ينكشف سر السير إلى الله: ﴿وَأَعْبُدُ رَبَّكَ

حَتَّى يَأْنِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، وترى هنالك بعين اليقين حقيقة الوجود الدنيوي، من خلال وجودك الآخروي: ﴿وَجَاءَتْ سَكَرَةُ الْمَوْتِ إِلَيْهِ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحْمِلُدُ وَنُفِخَ فِي الْأُصُورِ ذَلِكَ يَوْمُ الرَّعِيدِ﴾ [١٠] وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَيِّنٌ وَشَهِيدٌ ﴿١١﴾ لَقَدْ كُنَّتِ فِي عَقْلِهِ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غُطَاءَكَ فَبَصَرْكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [١٢] [ق: ١٩ - ٢٢] .

إن المعرفة بالله تملأ قلبك أنساً بالله، ثم أنساً بالحياة، وأنساً بالكون والكائنات، وأنساً بالموت، الذي لن ترى فيه - إذ تقف عليه - إلا موعداً جميلاً، للقاء جميل، مع رب جميل. فذلك ذوق الإحسان في قمة المشاهدات الإيمانية. وإنما (الإحسان): أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) ^(١). ألا يا حسرة على الناس إذ جهلوا بالله!

حتى إذا وجدت ما وجدت، وعرفت من ربك ما عرفت، أبْتَأْتُ عَلَيْكَ مَعْرِفَتَكَ، وَمَا فَاضَتْ بِهِ عَلَيْكَ جَمَالُ الْأُخْرَى الْكُوُنِيَّةِ؛ إِلَّا أَنْ تَسْعِيَ بِهَا الْخَيْرَ إِلَى النَّاسِ كُلَّ النَّاسِ.. دَاعِيًّا إِلَى اللَّهِ وَمَعْرِفًّا بِهِ، لَا يَمْكُنُ لِعَارِفِ اللَّهِ حَقًّا إِلَّا أَنْ يَكُونَ دَاعِيًّا إِلَيْهِ، وَهُلْ يُسْتَطِعُ الْمُحَبُّ أَنْ يَكْتُمَ مِنْ مَحْبَّتِهِ شَيْئًا؟ إِنَّ الْوَجْدَانَ لِيُضِيقَ عَنْ كَثْرَاتِ جَمَالٍ، تَشَرِّقُ أَنوارُهِ عَلَى الْكُوُنِ كُلِّهِ! وَلَا يَمْكُنُ لِلنُّورِ إِلَّا أَنْ يَنْيِرَ!

(١) متفق عليه.

تبصرة:

إن الدعوة إلى الله إنما هي تعريف بالله.. فتأمل!

هؤلاء الناس الذين شغلتهم أموالهم الفانية، وأشغلاهم الصبيانية، وأحزانهم الطفولية، وأهنتهم عن التفكير في حقيقة أنفسهم وحقيقة الوجود من حولهم، إنما هم في هذا المقام كالأطفال، لا يدرؤن ما يضرهم مما ينفعهم، فهم أحوج ما يكونون إلى من يذيقهم لحظة من لحظات المحة الربانية؛ عسى أن يجدوا شيئاً - ولو قليلاً - مما وجدت؛ فيتعلّقوا بجمال الله كما تعلقت: (ورجل قلبه معلق في المساجد)، ويدركوا حينئذ أن للوجود معنى أعظم بمالين المرات مما عرفوا في وعيهم البهسي الساذج.

وبالتعريف بالله تزداد - أنت أيضاً - معرفة جديدة به. فكأنك إذ تسعى إلى تعريف غيرك به؛ تكتشف أنك إنما تعرف نفسك به! فعملك ذاك خير الأعمال، وسعيك ذاك أحسن ما في منازل الإيمان من جمال! (وَمَنْ أَحْسَنْ فَوْلَ مَمَّ دَعَ إِلَى اللَّهِ) [فصلت: ٣٣].

التعرف إلى الله والتعريف به كلمة لا تشرحها العبارات، ولا تكشفها الإشارات، ومهما سودت لك من ورقات، أو صنفت من مصنفات؛ فإني سأبقى دون مداركها الشاملة على شاطئ الابتداء! وإنما الذي عليَّ أن أبلغك أنها الحلاوة

التي لا تدانيها حلاوة، وليس لي أبداً أن أصف لك المذاق؛ لأن الحلاوة لا تدرك إلا أن تذاق، فلتعرف ما هنالك ذق! وعذرني في هذا كله أن أصف لك الطريق، فاسلك عسى أن تكون من الراشدين!

التعرف إلى الله والتعريف به: ذلك هو رأس العلم، وتلك هي زبدة المعرفة، وعليها ينبني ما بعدها من كلمات، في بلاغ الرسالة القرآنية، فلا مبدأ من مبادئها، ولا ركن من أركانها؛ إلا وهو مضمن في المعرفة بالله.

يمكن لك يا صاح - بالتدبر والإبصار - أن تجد كل ذلك عنده؛ لأن من وجد الله - كما في الحكمة المأثورة - وجد كل شيء، ومن فاته الله فاته كل شيء، كيف لا وقد قال الله في بلاغه الحكيم: ﴿فَذَلِكُمْ أَنَّهُ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي الْعَوْنَى بَعْدَ الْعَوْنَى إِلَّا أَضَلَّلُ فَأَنَّ تُصَرَّفُونَ﴾ [يونس: ٣٢]، ولذلك نوجز ما يجي من بلاغات الرسالة، مختصرتين الكلام في المعاني المفتاحية، ولنك في كتابنا المفصلة في هذا ما يعني إن شاء الله^(١)، وإنما العبرة عندنا ها هنا إبلاغ البلاغ بأخف ما تدركه الأسماع.

(١) ن. ذلك في كتابنا: جمالية الدين.



في اكتشاف الحياة الآخرة

هل تعرف: ما الحياة؟ هذا المعنى اللطيف الغريب العجيب، الذي يوصف به كل كائن حي في هذا الوجود، ما دامت نسمتها الغريبة تسري بجسده، حتى إذا فارقته تلك النسمة؛ فارق الحياة، أو بالأحرى فارقته الحياة؛ فصار ميتاً، ولم يعد معدوداً من أحياء هذا الكون.

مهم جدًا أن تستحضر أن (الحياة) بكل ألوانها وتجلياتها مصدرها واحد: هو (الحي) سبحانه، فليس عيناً أن يعلمنا الله بأن من أسمائه الحسنى هذين الاسمين العظيمين: (الحي) و (المحيي)، فهو الحي بذاته سبحانه، المحيي لغيره، ولا حياة لأحد سواه إلا بأمره. سبحانه وتعالى من رب عظيم، وله الحمد في الأولى والآخرة.

وقد وصف الله تعالى (الحياة) في القرآن الكريم بصفتين

متقابلتين: الأولى: هي (الدنيا)، والثانية: هي (الآخرة)؛ وذلك نحو قوله تعالى: «أَرَضِيْتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعْتُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ» [التوبه: ٣٨]، وقوله سبحانه: «وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا لَمْ يَعْلَمُوا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَّعْ» [الرعد: ٢٦].

فالحياة إذن طبقتان: الأولى: تتنمي إلى عالم الشهادة، وهي حياتنا هذه التي نحيا بها، والثانية: تتنمي إلى عالم الغيب، وهي الحياة الآخرة. وقد علمت أن الإيمان بالآخرة في الإسلام - من حيث هي (حياة) - ركن من أركان الإيمان الستة، التي وجب على كل مسلم أن يعلمها، ويؤمن بها. ولنبدأ الآن رحلة التدبر لهذا المعنى في الرسالة القرآنية.

ذلك أنه ما قرِن بالإيمان بالله شيء - في الكتاب والسنة - مثل الإيمان باليوم الآخر، فهو أصل من أصول الرسالة القرآنية، ومقصد من مقاصد البلاغ الإلهي، وما كان ذلك ليكون لو لا أن فيه حكمة ما، وهو ما نحاول اكتشاف بعض أسراره في هذه الإشارات بحول الله.

وأما الآيات فلنذكر منها أمثلة، تدل على ما سواها، فذلك في القرآن أكثر من أن يحصى لفظاً ومعنى، ونحوه قوله تعالى في حق المؤمنين الصالحين من سائر الملل: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّنَعَيْنَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَآتَيْوْهُ الْآخِرَةَ

وَعَمِلَ صَلِحًا فَلَهُمْ أَخْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزُنُونَ» [البقرة: ٦٢]، قوله تعالى في حق المنافقين: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ إِيمَانًا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ» [البقرة: ٨]، وقال في حق أهل الكتاب الذين عرفوا الحق فأسلموا: «لَيَسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَلَوَنَّ أَيَّتِنَّ اللَّهَ أَنَّهَا أَتَيْلَ وَهُمْ يَسْجُدُونَ» ^{١١٣} **يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ»** [آل عمران: ١١٣]، وقال في سياق التشريع: «ذَلِكَ يُوعَذُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» [البقرة: ٢٣٢]، وقال سبحانه في حق العابدين من عمار المساجد: «إِنَّمَا يَعْمَرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ أَمَرَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَإِنَّ الْزَكَوَةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهُ فَعَسَى أَوْلَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهَتَّدِينَ» [التوبه: ١٨]، وقال سبحانه في التنبيه على التأسي بسيد المرسلين ﷺ: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُشْرَقَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا» [الأحزاب: ٢١]، ومعلوم أن مثل هذا في القرآن كثير.

وأما السنة فقد تواتر فيها هذا المعنى بهذه الضمية: (الإيمان بالله واليوم الآخر)، تواترًا معنويًا كلية، فمن ذلك قوله تعالى: «فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَزْحَزْ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلِ الْجَنَّةَ؛ فَلَتَأْتَهُ مَتِيَّهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» ^(١)، قوله: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَيَحْسُنْ إِلَى جَارِهِ، وَمَنْ كَانَ

يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَيَكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَيَقْلِلْ خَيْرًا أَوْ لِيُسْكِتْ» ^(١)، وقوله أيضًا: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَلْبِسْ حَرِيرًا وَلَا ذَهَبًا» ^(٢)، ونحوه في السنة الصحيحة كثير جدًا.

والغاية عندنا إنما هي بيان طبيعة هذه العقيدة في الإسلام، واكتشاف بعض أسرارها، إذ رغم أن المسلمين اليوم يؤمّنون باليوم الآخر، إلا أن آثار ذلك في حياتهم قليل جدًا؛ بسبب عدم الإحساس بحقيقة في وجودهم، وضعف السير إليه، خلال آياته؛ لاكتشاف مشاهده الإيمانية، من خلال مشاهده القرآنية، فهو إذن عدم الإبصار، وهذا عمل إيماني وجب على كل مسلم أن يسعى لاكتسابه؛ حتى يجد ما وجد الصحابة من هذه الحقيقة القرآنية العظمى، ويلتقط واحدًا من أعظم مضامين رسالة الله رب العالمين إلى الناس أجمعين.

إِنَّ اللَّهَ يَخْبِرُكَ بِخَبْرِكَ، **فَاسْتَعِنْ لِمَا يُوحَى** [طه: ١٣]! وافقه عن الله ما يقول، فإن الأمر بهم وجودك، ومصيرك أنت بالذات!

اقرأ، وأنصت، وتدبر قوله تعالى: «إِنَّمَا مَثُلَ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا كَمَّا أَنَّزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْنَاطَ بِهِ بَنَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَمُ حَنَّ

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أحمد والحاكم وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغرى: (٦٥٠٩).

(١) رواه مسلم.

إِذَا أَحَدَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَأَزْيَّنَتْ وَظَرَبَ أَهْلَهَا أَنْهَمْ قَدْرُوتَ
عَلَيْهَا أَتَهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَانَ لَمْ تَغْرِ
بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْأَيْدِي لِعَوْمِ يَنْفَكُرُونَ ﴿١١﴾ وَاللَّهُ يَدْعُونَ إِلَى دَارِ
السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطِ تُسْقِيمٍ ﴿٢٤﴾ [يونس: ٢٤، ٢٥].

هاهنا لمفهوم (الحياة) حقيقتان: حقيقة الحياة الدنيا،
وحقيقة الحياة الأخرى.

فأما الحياة الدنيا فأهم خصائصها الجوهرية أنها فانية، فهي
محكوم عليها بـ (الفناء)، وقد ضرب الله لها في الآية السالفة
مثلاً: وهو دورة الحياة والموت في الطبيعة، إذ ينزل ماء الحياة
في فصل الخريف وفصل الشتاء، غيثاً يبعث النبات من
أعشاب وزروع، فتبتهج الأرض بالربيع الزاهر، وتحتفل
بموسم الجمال، أشجاراً وأطياراً وأنهاراً، وزخرفة تعلو الروابي
والبساتين والسهول؛ فتكون أشبه ما تكون بالحسناء، المتزينة
بشتى التلاوين وفنون التقين؛ حتى تكون في أحوال
الإغواء والإغراء! ذلك أن الزخرفة الصارخة تلقي على قلب
الإنسان شيئاً سحرية، فتستوعب كل وجданه وتفكيره،
فلا يرى شيئاً بعد ذلك إلا من خلالها! حتى إذا جاء المصيف،
 وأنضجت الزروع حبوبها؛ كان الحصاد مأهلاً، فلا ترى لها في
الأرض أثراً إلا هشياً من حصيد! تماماً كما تتناثر أوراق
الأشجار عند الخريف، لقى ذابلاً، تذروه الرياح بكل البطاح!

فتعوي ريح الفناء بالوديان والقيعان، لتكتنس كل أثر للحياة،
وકأن الأشجار المتحطمة الأغصان، ما أورقت قط
ولا أزهرت، وكأن الأطيار الراحلة في الأفق البعيد ما
عششت هاهنا ولا غردت! ﴿كَانَ لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ﴾!

تبصرة:

ولنا في هذا المثال الرباني الحق عبرتان كلتاها ترجع إلى
حقيقة كونية عظمى، الأولى: تتعلق بمفهوم المكان، أي
طبيعة بناء الكون، والثانية: تتعلق بمفهوم الزمان؛ أي طبيعة
حركة العمر.

فأما الحقيقة الأولى: أي مفهوم المكان؛ فهو راجع إلى أن
هذا البناء الكوني الممتد ما بين السماء والأرض؛ ليست له
طبيعة خالدة؛ لأن تكوينه الابتدائي كان كذلك؛ أي أنه بني
على هذا الوزان، وهو أن يحيا إلى حين، لا إلى الأبد، فكل
المكان من حيث هو مكان قائم على مبدأ الفناء، فحركة
أجرامه ومداراته فضاءاته، كلها سائرة إلى نهايتها، ومن هنا
كانت حياة هذا الكون الحالي إنما هي (الحياة الدنيا)، فهي
حياة، نعم، لكنها إلى حين، إنها (دنيا): أي قربة الأجل،
لا خالدة، ولا حتى ممتددة امتداداً طولياً حقيقة، بالنسبة إلى
امتداد (الحياة الأخرى).

وكم أخطأ الناس في هذا الزمان في فهم معنى (الدنيا)، إذ ظنوا أنها دالة على الجمال، والغنى والرفاه؛ حتى جعلوا من أسماء بناتهم (دنيا)، وما هذا التعبير بداع على المدح، بل له دلالة قدحية ناقصة، فالدنيا - بهذا السياق خاصة - من الدنو والدناءة، وهي معنى نازل لا علو له؛ ولذلك قيل لسيء الأخلاق: دني؛ أي له أخلاق منحطة قريبة من الأرض، فالدنيا: حياة قريبة من الفناء، لا لذة حقيقة فيها ولا متعة، ما دام كل شيء فيها إلى فناء. فهي دنيا.

ومن هنا سمت العرب أبناءها - قبل الإسلام وبعده - (خالداً) و(خالدة)، إذ رغبوا قبله في الخلود الدنيوي، وهو محال؛ لأن الضدين لا يجتمعان، ثم رغبوا بعده في الخلود الآخرى السعيد، وهو ممكن بإذن الله.

إن بناء الكون الدنيوي له ساعة ينها فيها، ثم يفنى بإرادة الله، فلا يبقى شيء إلا الله الواحد الأحد، وهذه الساعة هي (الساعة) بتعبير القرآن، ذلك الحدث الكوني العظيم، سألتكم بالله أن تتدبر قوله تعالى: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّ لَا يَجْلِيْهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ نَقْلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَا تَأْتِيْكُمْ إِلَّا بَعْنَةً يَسْأَلُونَكَ كَانَكَ حَفِيْقٌ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» [الأعراف: ١٨٧]، ذلك هو السؤال الأزلي: الساعة؟ فلم يزل الإنسان مذ كان يتوجس وقوعها، ويتحسّس وقتها وحقيقةها، لكن الله حَفَّهُ اللَّهُ أَنْبَأَهُ أَنَّهَا سُرُّ مِنْ أَسْرَارِ قَضَائِهِ الْكُوْنِيِّ

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّ لَا يَجْلِيْهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقد ورد في التفاسير أن العرب واليهود كانوا كثيري السؤال لـ محمد ﷺ عن الساعة، كانوا يسألونه ظانين أنه حفي عنها، أي كثير السؤال - مثلهم - لربه عنها، إذ لا يتصور في المرء إلا السؤال عن الغوامض الكونية. ولذلك قال قبل: «نَقْلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» [الأعراف: ١٨٧]، إنها حدت كون عظيم، يمتد من السماء إلى الأرض. ليحدث ذلك التحول الرهيب في طبيعة الكون، تدميراً ثم تكويناً وإفناً ثم خلقاً، لاستقبال الحياة الأخرى، وإن أمرها في ميزان الله لقريب.

ومثله قوله تعالى: «يَتَأْلِمُ الْأَنْسَابُ أَتَقْوُ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَدَّدَ عَظِيمٌ ① يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذَهَّلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرَضَعَتْ وَتَضَعُّ كُلُّ ذَاتٍ حَمَلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَّرَى وَمَا هُمْ سُكَّرَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ» [الحج: ٢١].

والساعة: هي القيامة، والواقع، والقارعة، والصاخة... إلخ من الأسماء، التي عبر فيها رب العظيم عن لحظة نهاية الكون الدنيوي، فالكون الدنيوي إذن تكوين ابتدائي، والكون الأخرى تكوين استئنافي، قال حَفَّهُ اللَّهُ: «يَوْمَ نَطَوَ الْسَّمَاءَ كَطَنِيَ السِّجْلَ لِلْكُتُبِ كَمَا يَدَانَا أَوْلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَنَعِلِيْرِبِ» [الأنبياء: ١٠٤]، وقال سبحانه: «أَوْلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يَبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ

يَسِيرٌ ۝ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقُ ثُمَّ أَلَّهُ يُشْكِنُ النَّسَاءَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ [العنكبوت: ٢٠، ١٩]، ولذلك قال تعالى: «ثُمَّ لَمَّا فَلَلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝» [الأعراف: ١٨٧] كما أوردهنا قبل.

إن الساعة إذن؛ هدم وبناء: هدم لكون الدنيا، وبناء لكون الآخرة، إنها تحول كوني عجيب من طبيعة إلى أخرى، يحدث في لحظة واحدة، كاللحمة من البصر! كما في قوله تعالى: «وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْعَ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِلَيْهِ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝» [النحل: ٧٧]، وقال: «وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجْدَةً كَلَمْعَ بِالْبَصَرِ ۝» [القمر: ٥٠].

إن الكون الدنيوي خلق فان، ومعمار إلى زوال، هذه هي الحقيقة الأولى.

أما الحقيقة الثانية: أي مفهوم الزمان؛ فهو مرتبط في دلالته بالمكان، بل إنها الزمان وليد حركة المكان، فالمكان الفاني لا ينبع عنه إلا زمان فان. كما أن المكان الحالد لا ينبع عنه إلا زمان الحالد. ومن هنا كان العمر البشري - مهما توهمنا أنه طال - قصيراً جدًا. ويكفينا في ذلك حقيقة واحدة: هي أن الشهوات الدنيوية كلها، لذتها تنتهي ب بدايتها! كل شوق إلى المزينات الدنيوية يموت بمجرد الحصول عليها، فلذة الطعام الشهي الجميل، إنما تشعر بها

قبل أن تأكله، وعند بداية الأكل، ثم يبدأ بعد ذلك خط التلذذ في الهبوط حتى درجة الشبع، فاللذمة، حتى يصير اللذذ بعد ذلك مموجاً قبيحاً، وقد كان قبل قليل في غاية اللذة.

وقس على ذلك كل المتع الدنيوية، مما زين للناس، من مثل الوارد في قوله تعالى: «رَبِّنَا لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ أَنْسَابِهِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَطِيرِ الْمُقْنَطَرَةِ مِنْ أَلْدَهِ وَالْفَضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْفَرِ وَالْحَرْبُ ذَلِكَ مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَعَابِ ۝» [آل عمران: ١٤]. إن طبيعة الشهوات الدنيا أنها فانية، لا تكاد تبتدئ حتى تنتهي! وإنما جمال المتعة هو الخلود فيها. هذا هو الجمال الحق، وتلك هي الحياة الحق؛ ولذلك قال بعد مباشرة، ناسخاً قبح الزوال بجمال الخلود: «قُلْ أَوْنِسُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ أَتَقْوَى عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّدُتْ تَجَرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِيلِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطْهَرَةٌ وَرَضْوَاتٌ مِّنْ أَنَّهُ اللَّهُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِإِلْعَبَادِ ۝» [آل عمران: ١٥]. قضية العمر أو الزمان راجعة إلى هذا المعنى، فالفرق فيه ما بين الوهم والحقيقة؛ هو بالضبط فرق ما بين الفناء والبقاء. وما أجمل قول الله الملك السلام، في آياتي (يونس) مما أوردهنا قبل، للتذير: «حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَأَزَّيْدَتْ وَظَرَبَ أَهْلُهَا أَنْهَمْ قَدِيرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيَلَّا أَوْ نَهَارًا ۝

فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَانَ لَمْ تَفْنِ يَالْأَمْسِ كَذَلِكَ تُفَصِّلُ الْأَيْتَ لِقَوْمٍ يَنْفَكِرُونَ ^{٢١} وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ ^{٢٢} [يونس: ٢٤، ٢٥]. تدبر قوله في آخر الكلام: «وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ» [يونس: ٢٥].

- إنه معنى جميل جداً، فقد جاء مثابلاً لما ذكر من أمر الحياة الدنيا وزخرفها الفاني، وما لها الحميد. إذ كل ذلك موح بالخوف والخراب؛ لأن دار الدنيا هي دار الخراب، فكل نفس تعلقت بها إنما تعلقت بالوهم، وهذه حقيقة رهيبة، تملأ القلب هولاً وفزعاً، إذا كان لهذا الإنسان القارئ، أو المستمع للخطاب الرباني قلب فعلاً، «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَفَأَلَقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ» [ق: ٣٧]، فمقابل ذلك الشعور بما صوره القرآن لك من مآل مأساوي للحياة الدنيا، مكاناً وزماناً؛ ينفع الله روحك بالبشرى: «وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ» [يونس: ٢٥].. السلام الحق الجميل، الممتد بلا نهاية، يملأ عرض السماوات والأرض، ولكن - فقط - لمن آمن واهتدى؛ ولذلك قال: «وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ» [يونس: ٢٥]، فلا جنة بلا هداية. عمر ممتد بلا نهاية، وزمان بلا حساب، يغرس من جمال الله خلوداً إلى الأبد، ذلك هو السلام، قال عز من قائل: «إِنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا رَبِّنَا اللَّهَ ثُمَّ أَسْتَقْمُوا تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَابْشِرُوا بِالْحَسَنَاتِ الَّتِي كُنْتُمْ تُعْكِدُونَ ^{٢٣} نَحْنُ أُولَئِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ

وَلَكُمْ فِيهَا مَا شَتَّهَ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَعُونَ ^{٢٤} نَزَّلَ مِنْ عَفْوٍ رَّحْمَمٍ ^{٢٥} [فصلت: ٣٠ - ٣٢].

إن الإنسان عندما يتذمّر هذه الحقائق القرآنية العظيمة، يرى بأم عينيه أن العمر الدنيوي مجرد حلم، وأن مفهوم (الحياة) إنما يتجلّى بصورة حقيقة في الآخرة، حتى لو كان ما دون الآخرة ليس بحياة! وتلك آيات القرآن العظيم ناطقة بهذا، قال تعالى: «وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوَ وَلَعْبٌ وَلَكِنَ الدَّارُ الْآخِرَةُ لَهُمْ الْحَيَاةُ الْأَوَّلَى كَانُوا يَعْلَمُونَ» [العنكبوت: ٦٤]؛ فلفظ (الحياة) صيغة دالة في العربية على الامتلاء، كقولك (فيضان) بدل (فيض)؛ إذا كان قد بلغ السيل الرببي، والتقي الماء على أمر قد قدر، فجرف كل شيء، فيقال حينئذ: (فيضان). فلفظ (حيوان) هو بمعنى الامتلاء حياة، بل هو فيضان الحياة. تلك هي طبيعة الحياة الآخرة تفاصيل بالحيوية والحياة، ومتى نعمها التي لا تنفذ على عرض الكون، فلا يعرف لها نهاية، خلوداً ممتدّاً، إلى ما شاء الله. ويقى ما دون ذلك من (حياة) أشبه ما يكون بطعم الصياد، الذي يغرى الغريرة، لتقع على المتعة الوهمية؛ فتكون من الماكلين. فهي «مَتَّعُ الْغُرُورِ» [آل عمران: ١٨٥] حقاً، كما قال تعالى في سياق آخر: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوْفَّنَ أُجُورُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ رُحِنَّ حَمَّ عَنِ الْأَنْتَارِ وَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَّعُ الْغُرُورِ» [آل عمران: ١٨٥].

والكافر لا يرى ذلك إلا بعد هلاكه، فما أعجب تعبير القرآن في هذا! إذ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَجَاءَهُ يَوْمَئِنْ بِعِهِمْ يَوْمَئِنْ يَنْذِكِرُ أَلْإِنْسَنُ وَأَنَّ لَهُ الْذِكْرُ ⑯ يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَايَي ⑯ ⑯ [الفجر: ٢٣، ٢٤] ، فحسرة الكافر وندمه إنما هو لكونه لم يقدم لحياته، ويقصد الحياة الآخرة، ولكنه لم يصفها بـ (الآخرة)؛ للدلالة على أنها هي وحدها حياته، إذ أدرك الآن عياناً أن ما سبق من حياته الدنيا ليس بحياة، فندم على تفريطه في حياته الحقيقة: الآخرة، ونتيجة الأمر أنه ما حيى إلا من حي في الآخرة وللآخرة. وأما الدنيا فهي - بالنظر إلى هذا المعنى - ليست بحياة؛ إلا مجازاً .

فإذن لا طول للحياة الدنيا ولا بقاء لها مكاناً وزماناً، بل هي مجرد خدعة للإنسان إن لم يستشرها للحياة الحقيقة: الآخرة، إنها - لو تدبرت - عمر في أيام.. فلا طول، وإنما الطول مفهوم يدل على الحصر؛ إذ ما سمي طولاً إلا لقابليته للعد والقياس، وكل محدود محدود. ومن هنا وصف الله الجنة بالعرض دون الطول، وذلك بعدهما قرر عيّن طبيعة الحياة الدنيا، فقال على سبيل الجزم والتحذير: ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّا حَيْوَةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَفَوْ وَزِينَةٌ وَتَفَاهُمٌ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَثُلَ غَيْثٌ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاهُ ثُمَّ يَسْجُعُ فَتَرَهُ مُصْفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَنَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَضُونَ وَمَا الْحَيْوَةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَّعٌ الْغُرُورٌ ⑰ ⑰ سَاقُوا إِلَى مَعْرِفَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَاهُتُهُ عَرَضُهَا كَعَرِضِ السَّمَاءِ

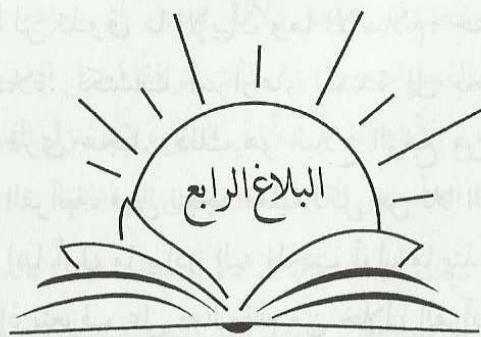
وَالْأَرْضِ أُعْدَتْ لِلَّذِينَ كَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ⑯ [الحديد: ٢١، ٢٠] .

لقد ابتدأ الخطاب في الآية بهذا الأمر الجازم: (أعلموا... !) والعلم إدراك الشيء على ما هو عليه في الواقع قطعاً ويقيناً، أي بلا تردد ولا شك، ولا ظن. (أعلموا..) هكذا قطعاً، وجاء المثال القرآني العجيب مرة أخرى بصيغة أخرى: مثال الزرع إذ ينبع الفلاح بخضره وجماله وسنبله، فلا يليث أن يصير حقله الجميل حطاماً، أو حصيداً كأن لم يغن بالأمس! فكذلك الدنيا كلها بزيتها وأموالها وأولادها، ﴿ وَمَا الْحَيْوَةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَّعٌ الْغُرُورٌ ⑯ ⑯ [آل عمران: ١٨٥] .

وهنا جاء المقابل الآخروي هذه المرة في القرآن الكريم بصيغة فريدة.. لا مثيل لها، جاء طلب المسابقة إلى المغفرة والجنة، ووصف الجنة بما قال عيّن: ﴿ عَرَضُهَا كَعَرِضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ⑯ [الحديد: ٢١] ، فوصفها بالعرض دون الطول، ذلك هو الزمان الآخروي السعيد، والعمر الجميل المديد، تلك هي الحياة.. ﴿ خَلِيلِنَ فِيهَا أَبَدًا ⑯ ⑯ [النساء: ٥٧] ، إن (الطول) - كما ذكرنا - مفهوم محدود محدود، والجنة لا حد لها، ولا عد. إنها (الحيوان)، فلا يليق بوصفها من ألفاظ الامتدادات إلا (العرض)، إذ بالعرض تعيش اللحظة الواحدة أكثر من مرة، أما الطول فلا يتيح لك من اللحظة

الواحدة إلا خطوة واحدة، خطوها إلى أمام؛ لتصبح بعد ذلك من (الماضي)، فلا يمكنك أن تسبح في النهر مرتين، كما قال الحكماء، وأما العرض فهو امتداد أفقى في الزمان الفسيح، إذ تتمتع بالملائكة الواحدة أبداً، وتعيش الشعور الواحد أبداً، وتعرف من اللحظة الواحدة معنى الخلود، صورته في الدنيا هي (بركة العمر)، حيث يبارك الله العمر القصير - ولا يكون العمر إلا قصيراً - ويزكيه؛ فينجز المؤمن فيه من الصالحات؛ ما يمكنه بإذن الله من الخلود في الجنة، وصورته في الآخرة: حياة سعيدة مطلقة في الزمان، سابحة في الجمال، تنعم بها لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

- فما أبلد من يستترف طول عمره على حساب عرضه! ولا يسبق إلى هذا إلا من عرف الله ابتداء، ثم اكتشف هذا المعنى اللطيف (للحياة)، وذاق جماله، فسابق إليه، وإنما **﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتَيْهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمُ﴾** [الحديد: ٢١]، فكيف السبيل إلى ذلك، وكيف المسير؟ ذلك هو البلاغ الرابع من بلاغات الرسالة القرآنية، فيه بيان طريق العمل، ورسم معالم السلوك.



في اكتشاف الصلوات وحفظ الأوقات

لو أدرك المسلمون اليوم ما معنى (الصلوة)؟ ما تركها واحد منهم، إلا من أصر على ضلاله وعماه، أو كرّ على كفره وزندقته!

تبصرة:

أما أنت يا صاحب فاعلم أن السير إلى الله من غير مسلك
الصلوة ضرب في التيه!

كل أعمالك في الجهاد، والدعوة إلى الله، وما تستكثره من حركات وسياسات؛ راجعة إلى مدى سلامتك هذا الأصل عندك؛ قصداً، ووقتاً، وأداء، وإنما فعل دينك السلام! **﴿كَرَبَرَبٌ يَقِيعَةٌ يَحْسَبُهُ الظَّمَآنُ مَاءٌ حَقَّ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابٌ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾** [النور: ٣٩].

إنك لن تذوق ما الإيمان وما الإسلام؛ حتى ترحل إلى الصلاة؛ تكتشف أسرارها، الممتدة إلى بحر الغيب المطلق؛ فترى عجباً. ذلك هو البلاغ الرابع من بلاغات الرسالة القرآنية، فهي نتيجة فعلية لكل من تلا القرآن حق تلاوته، إنها أول ما يبادر إليه المحب أول ما يتذوق معنى المحبة؛ إذ يتعرف على جمال الله من خلال القرآن الكريم؛ ومن هنا أمره عليك بالصلاحة؛ مباشرة بعد أمره تعالى بالتلاوة، على سبيل العطف المباشر، المشعر بالتساوي بين الفعلين، مما يوحي بانعدام الفرق الزمني بينهما؛ لما بين الاستجابتين من ارتباط وثيق، إن من تعرف على القرآن الكريم حقاً لا يملك إلا أن يصل إلى: «أَتَلْمَّاً أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَبِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ» [العنكبوت: ٤٥].

ومن هنا كان أول عمل من العبادات قام به رسول الله ص - بعد الإيمان بالله وتوحيده - هو الصلاة، وهي أول عمل تعلمه من تطبيقات القرآن، وهذا أمر مهم جداً في معرفة ما يبدأ به من أمر البلاغ. قال عليه الصلاة والسلام: «أتاني جبريل في أول ما أُوحى إلي فعلماني الوضوء والصلاحة، فلما فرغ من الوضوء أخذ غرفة من الماء فنضج بها فرجه»^(١). ذلك أول العمل، كما هو ظاهر هذا الخطاب: (في أول ما أُوحى إلي)،

الوضوء والصلاحة، ولهذا دلالة كبرى في معرفة البدایات والأصول العمليات، ولم يزل ذلك مرافقاً لعمل الرسول ص، فلا يزداد مع الأيام إلا ترسّخاً في الدين، وما تنزل القرآن بعده إلا بما يؤكّد أنه أساس الغایات، ومتنه العبادات.

وتأمل كيف أن الله جل جلاله أفرد (إقامة الصلاة) بالذكر - في بناء المنهج الإصلاحي - بعد ذكر التمسيك بالكتاب، مع أن الصلاة فرع عن التمسيك بالكتاب، وداخلة في معناه، فلولا أنها أساس، وأم من أمهات البلاغ القرآني، ومنطلق من منطلقات الصلاح والإصلاح؛ لما كان لها ذلك التفرييد الفريد، قال عز من قائل: «وَالَّذِينَ يُمْسِكُونَ بِالْكِتَبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَنُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ» [الأعراف: ١٧٠].

إن العلماء يجمعون على أن الوظيفة الوحيدة للإنسان في الكون هي عبادة الله، فكل حظوظه الدنيوية إنما هي منجرة بالطبع مع أصل العبادة، وإنما أتيح له أن ينال من حظه ما يعينه على وظيفته الأساسية، وأصل ذلك ومستنته قوله تعالى: «وَمَا خَلَقْتُ لِجَنَّ وَإِلَّا يَعْبُدُونَ» [الذاريات: ٥٦].

إن خلاصة دين الإسلام عقيدةً وشريعةً، هي إخلاص العبادة لله الواحد القهار، والصلاحة منه هي مفتاح كل شعيرة من شعائره، وروحها، وغايتها؛ زكاةً، وصياماً، وحجّاً، وجهاداً... إلى آخر ما تفرع عن هذه وتلك من سائر أعمال

(١) رواه أحمد والدارقطني والحاكم وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير: (٧٦).

البر، ولذلك كانت الصلوات الخمس - بعد الشهادتين - هي العنوان الجامع المانع لكل أعمال الإسلام. إذ كل ما سواها داخل في معناها. وليس عبثاً أن يعتبرها الرسول خير أعمال المسلم، قال ﷺ: «سددوا وقاربوا» وفي رواية: «استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ولا يحافظ على الموضوع إلا مؤمن»^(١).

ولقد فصلنا هذا في غير هذا المكان من كتابنا^(٢)، لكننا نقتصر هنا على ما يفيد السياق.

لقد جعل الله الصلاة هي آية المسلم، والعلامة الجميلة التي تميزه في مسيرة التاريخ النبوي، فهي الفصل الذي لا يعرف إلا به، والنور الذي لا يمشي إلا به، قال ﷺ: ﴿مُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشَدَّهُمْ عَلَى الْكُفَّارِ رَحْمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَهُمْ رُكُعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثْرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَّلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَّلُهُ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَعَ أَخْرَجَ سَطْعَهُ، فَازْدَرَهُ، فَاسْتَغْلَظَ فَأَسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ، يُعِجِّبُ الْرَّزَاعَ لِيغْنِيَّهُ الْكُفَّارُ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ مَاءَمُوا وَعَمِلُوا الصَّلَاحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩]، وإنما اكتسبوا صفتיהם الأولين: الجهادية: ﴿أَشَدَّهُمْ عَلَى الْكُفَّارِ﴾، والخلقية: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾؛ من كونهم رهباناً بالليل، أي قوله: ﴿تَرَهُمْ رُكُعاً

(١) رواه أحمد وابن ماجه وابن حبان والحاكم، والدارمي والبزار، والبيهقي والطبراني، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير رقم: (٩٥٢).

(٢) ن. كتابنا: قناديل الصلاة. دار السلام، القاهرة.

سُجَّداً﴾ [الفتح: ٢٩] الآية؛ لأن ذلك هو المعين الصافي الذي يتزود منه المسلم الصادق المجاهد الداعية إلى الله؛ بصدق التوجه والسير، من حيث إن قوله تعالى: ﴿تَرَهُمْ رُكُعاً سُجَّداً﴾ [الفتح: ٢٩]، فيه إشارة إلى أن ذلك هو دأبهم وحالهم المستمر في حركتهم التعبدية؛ إذ التعبير باسم الفاعل جمعاً: ﴿رُكُعاً سُجَّداً﴾، في سياق الفعل المضارع: ﴿تَرَهُمْ﴾؛ يوحى بصورة حية لقافلة المؤمنين، وهم منخرطون في حركة الصلاة المتواترة، من غير فتور أو انقطاع، سيراً مستمراً حتى كان ذلك صفة ثابتة لهم، حيثما تراهم، ﴿تَرَهُمْ رُكُعاً سُجَّداً﴾.

ولذلك كان تشبيه النبي ﷺ الصلاة في حياة المسلم التعبدية بالنهر الجاري، قال: «رأيت لو أن نهراً يباب أحدكم يغسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: فذلك مثل الصلوات الخمس؛ يمحو الله بهن الخطايا»^(١).

إن الإسلام في نهاية المطاف هو الصلاة، بالمعنى الذي سبق بيانه؛ وعلى هذا الوزان تُقْوَمُ أعماله كلها يوم القيمة، وعلى ذلك يتحدد مصيره الأخير..! قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الحاكم الحاسم: «إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيمة من عمله الصلاة! فإن صلحت فقد أفلح

(١) رواه مسلم.

وأنجح، وإن فسدة فقد خاب وخسر! وإن انتقص من فريضته قال رب: انظروا هل لعبدي من تطوع؟ فيكمل بها ما انتقص من الفريضة؟ ثم يكون سائر عمله على ذلك^(١).

وأوضح من هذا دلالة على ما نحن فيه قوله ﷺ: «أول ما يحاسب به العبد يوم القيمة الصلاة، فإن صلحت صلح له سائر عمله، وإن فسدة فسد سائر عمله»^(٢)، فليس عبثاً إذن أن قدم النبي ﷺ الصلاة في مراتب أعمال ابن آدم، على سبيل ترتيب الأولويات: (أحب الأعمال إلى الله الصلاة لوقتها، ثم بر الوالدين، ثم الجهاد في سبيل الله)^(٣)، إن الأمر جد، فتدبر! ثم أبصر!

وما بقي لمسلم ترك الصلاة من إيمانه إلا ما لا يخلده في النار، لا ما ينقذه منها بإطلاق، قال ﷺ: «بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة»^(٤)، وقال أيضاً: «بين الكفر والإيمان ترك الصلاة»^(٥)، ومثله قوله ﷺ: «ليس بين العبد والشرك إلا ترك الصلاة فإذا تركها فقد أشرك»^(٦)، وهذه

(١) رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع الصغير: (٢٠٢٠).

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط، والضياء عن أنس. وصححه الألبانى فى صحيح الجامع الصغير: (٢٥٧٣).

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه مسلم.

(٥) رواه الترمذى بسند صحيح، انظر صحيح الجامع الصغير: (٢٨٤٩).

(٦) رواه ابن ماجه بسند صحيح. انظر صحيح الجامع الصغير: (٥٣٨٨).

الأحاديث وما في معناها تقتضي أن المسلم التارك لصلاته قد شابه الكفار في صفاتهم، فكفر عملاً وإن سلم عقيدة؛ لأن المسلم إنما يتميز بصفة الصلاة التي هي عنوان إسلامه - كما بيناه قبل - فمن فقد عنوانه فقد هويته.

ولنعد إلى جمال القرآن الكريم، ذلك أن الله تعالى إذ يصف فلاح المؤمنين، يذكر الصلاة باعتبارها أول وسام نورى - بعد الإيمان - يشع من قلوبهم، وهو أمر يكاد يكون مطرداً في كل آية القرآن العظيم، يقول المولى الكريم في أول سورة البقرة: ﴿الَّذِي ذَكَرَكُمْ لَأَرِبَّ فِي هُنَّىٰ لِتَتَّبِعُنَّ﴾ [البقرة: ١ - ٣]، ومن الآيات يؤمنون بالغيب ويفسرون الصلاة وَمَا رَأَقُمْهُمْ يُتَفَقَّنُونَ [البقرة: ١]، وإن أجمل ما ورد في ذلك فاتحة سورة (المؤمنون)، إذ جعل الله أول صفاتهم الخشوع في الصلاة، وآخرها المحافظة على الصلاة، وكل أعمال الصلاح من فعل الخيرات وترك المنكرات؛ جعلها فيما بينها، فاقرأ وتدبر.. واحفظها واحدة واحدة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۚ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ حَشِعُونَ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ لِلرَّكْوَةِ فَعَلُونَ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَفِظُونَ ۚ إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ أَوْ مَا مَلَكُتْ أَيْمَنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۚ فَمَنْ أَبْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ لَا مَنْتَهِيَّمُونَ وَعَهْدُهُمْ رَاعُونَ ۚ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۚ أُولَئِكَ هُمُ الْمُرْتَوْنَ ۚ الَّذِينَ يَرْثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ١١].

فالخير كله فاتحته الصلاة، والخير كله خاتمه الصلاة، والخير كله غايتها الصلاة، والخير كله وسليته الصلاة.

تبصرة: والصلاحة تَرُكٌ كما هي فَعْلُ:

إن كنت تصلي حقاً؛ فأنت تارك لكل منكر من الكبائر والمربيقات! من مثل الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الriba، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقدف المحسنات المؤمنات الغافلات، وكذا تناول المحرمات من المطعومات والمشروبات، وأكل الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل به لغير الله، وشرب الخمر أم الفواحش، وسائر المسكرات والمخدرات، والسقوط في المحرمات من المعاملات والملبوسات، كالكبير، والظلم، والغصب، وشهادة الزور، وأكل أموال الناس بالباطل، والقمار، وسائر المنكرات!

فتتبر كيف أن الله جل جلاله ذكر في سياق صفات الفلاح - ما أوردناه قبل من فواتح سورة (المؤمنون) - عدداً من الأفعال والتروك، كان جانب الترك فيها أكثر حضوراً، باللفظ أو بالمعنى، كما في (الإعراض عن اللغو)، و(حفظ الفروج) الذي هو في معنى النهي عن الزنى، والنهي عن كل مسالكه وأسبابه، و(رعى الأمانات والعقود)، الذي هو في معنى النهي عن الخيانات بتشتى أنواعها، وهذا شيء مهم جداً، ذلك أن الصلاة كما ذكرنا ترك من التروك.

وحاجم ذلك كله قول الله ذي الأسرار والأنوار: ﴿وَأَقِرْ
الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ
أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. هل أبصرت هذه الآية؟ أبصر إذن كيف أن الله تعالى أسنن فعل النهي للصلاة نفسها! كأنها هي ذاتها شخص معنوي، في هيئة نبي مرسلاً يؤدي مهمته التبليغية، أو عبد مصلح يقوم بوظيفته الإصلاحية! أعد التلاوة وتتبر: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ
وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] عجيب! لأن معنى (أن تصلي): هو أن ترحل عن خططيتك إلى الله.. تخرج من دركات العادة إلى درجات العبادة، وهذا كلام يعبر عن حقائق لا يعلم مدى عمقها في النفس إلا الله! إذ تتحول الأذواق وتتبدل، يتغير طعم المنكر في قلبك فلا تستهليه. ويتبدل ذوق شهوات الحرام من الرغبة إلى الغضبة! وتصبح خلقاً آخر! أبصر ثم أبصر! فإن الصلاة تصنعك! نعم، إنها ﴿تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ
وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

هل غلبتك الفاحشة ولم تستطع التخلص منها؟ هل أنت مدمن على خطيئة ما؟ دواوئك واحد: صل! تقول لي: إنني أصل.. لا، لا! صل! فإنك لا تصلي! ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ
تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا
تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، صل! تجد أن ما كان يأسرك من المحرمات بالأمس، ويملاً عليك قلبك نزوةً ورغبةً،

فلا تستطيع التخلص منه؛ هو من أغض الأشياء إليك اليوم!
إن القرآن سيف قاطع، إذا قطع القول في حقيقةٍ فلا مراء بعدٌ
إلى يوم القيمة! ولقد قال الحق كلامه، **﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا
الضَّلَالُ فَأَنَّ تَصْرُفُونَ﴾** [يونس: ٣٢].

إن الصلاة سفر من الأرض إلى السماء؛ فأنني لمنازل
السلام أن تصطدم بنوازل الحرام؟ أبداً، لا شهود للدرجات
في نتانة الدّرّكات!

تبصرة:

ومن أعجب العجب أن ألمّ الله حَفَّلَهُ المسلمين بالصلاحة
إلزاماً؛ حتى في أحرج الظروف وأخطرها: الحرب.. قال حَفَّلَهُ:
﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَاةِ وَالصَّلَاةُ الْوُسْطَى وَقُومُوا بِاللَّهِ قَنْتَنِينَ
١٣٦
فَإِنْ خُفْتُمْ فِرَجًا أَوْ رُكْبَانًا إِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَمْتُمْ
مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٩، ٢٣٨].

قوله سبحانه: **﴿فَإِنْ خُفْتُمْ﴾** يعني في حال الحرب
وأعدام السلم والأمن، سواء لحظة الاشتباك أو لحظة
الترقب، قوله: **﴿فِرَجًا أَوْ رُكْبَانًا﴾**؛ أي: فصلوا (صلاة
الخوف) باصطلاح الفقهاء. وهي عندهم: الصلوات
الخمس إذ تؤدى في ظروف الحرب. فتؤدى **﴿فِرَجًا﴾**، أي:
على أرجلكم، واقفين أو سائرین، أو **﴿رُكْبَانًا﴾**؛ أي: راكبين
خيولكم، أو دباباتكم، ومصفحاتكم.

وقد فصل الفقهاء، والمفسرون، وشرح الحديث؛ صور
صلاة الخوف وأشكالها؛ بناء على قوله تعالى: **﴿وَإِذَا كُنْتَ
فِيهِمْ فَأَقْمَتْ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنَقْمُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ مَعَكَ وَلَيَأْخُذُوا
أَسْلِحَتِهِمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلَيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلَنَأْتِ طَائِفَةٌ
أُخْرَى لَمْ يُصْلِلُوا فَلَيَكُونُوا مَعَكَ وَلَيَأْخُذُوا حَدَرَهُمْ وَأَسْلِحَتِهِمْ وَدَ
الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفِلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتَعْتُكُمْ فَيَمْلِئُونَ عَلَيْكُمْ
مَيْلَةً وَجِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ يُكُمْ أَذْيَ مِنْ مَطْرِ أَوْ
كُتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتِكُمْ وَخُدُودًا حَدَرَكُمْ إِنْ اللَّهُ أَعَدَّ
لِلْكَفَّارِ عَذَابًا مُّهِينًا**
١٠٣، ١٠٢
**فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ قِيمًا
وَقُوَودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا أَطْمَأْنَتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ**
كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْفُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣، ١٠٢].

فهذا بقى لك بعد هذا يا صاح من الأعمال الحادية إلى
باب الله؟ وهما أنت ترى الصلاة أساس السير على كل حال،
منشطاً ومكرهاً؟ فأبصر!

ولصلاة الخوف صور كثيرة معروفة في كتب السنن
وكتب الفقه، وإنما الغاية عندنا هاهنا العبرة من الأحكام
لا أنفس الأحكام. وذلك أن الله حَفَّلَهُ طلب من المسلم
الصلاحة على كل حال ما دام عقله سليماً، لا ينقصه جنون
أو إغماء أو ما في معناهما.

وأحب هاهنا يا صاح - وأرجو أن تصرّ على قليلاً - لتعرف
حجم هذه الفريضة التي ضيعها كثير من الناس اليوم، ولتعرف

حجم الخسارة الواقعه بما ضيعواه؛ أن أعرض لبعض الفقه في صلاة الخوف، ليس لذات الفقه، ولكن لبيان خطورة هذه العبادة في الدين، ومقامها عند رب العالمين. جاء في حاشية السندي على النسائي: (قال النووي: روى أبو داود وغيره وجوهًا في صلاة الخوف يبلغ مجموعها ستة عشر وجهاً. وقال الخطابي: صلاة الخوف أنواع، صلاتها رسول الله ﷺ في أيام مختلفة، وأشكال متباعدة، يتحرى في كلها ما هو أحوط للصلاة، وأبلغ في الحراسة، وهي على اختلاف صورها متفقة المعنى).

قال الإمام أحمد: أحاديث صلاة الخوف صحاح كلها، ويجوز أن تكون كلها في مرات مختلفة، على حسب شدة الخوف، ومن صل بصفة منها فلا حرج عليه) ^(١).

قلت: ومن أخرج الوجوه في صلاة الخوف ما رواه البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: (غزوت مع رسول الله ﷺ قبل نجدة، فوازينا العدو، فصاففنا لهم، فقام رسول الله ﷺ يصلي لنا، فقامت طائفة معه تصلي، وأقبلت طائفة على العدو، وركع رسول الله ﷺ بمن معه، وسجد سجدين، ثم انصرفوا مكان الطائفة التي لم تصل، فجاؤوا

فرفع رسول الله ﷺ بهم ركعة، وسجد سجدين، ثم سلم، فقام كل واحد منهم، فرفع لنفسه ركعة وسجد سجدين) ^(٢).

ومن ذلك ما رواه البخاري أيضًا؛ عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: (قام النبي ﷺ وقام الناس معه فكبوا وكبروا معه، ورفع وركع ناس منهم، ثم سجد وسجدوا معه، ثم قام للثانية فقام الذين سجدوا وحرسوا إخوانهم، وأتت الطائفة الأخرى فركعوا وسجدوا معه، والناس كلهم في صلاة، ولكن يحرس بعضهم بعضاً) ^(٣).

ولعل أحراج صورها على الإطلاق أن يصليها كل واحد لنفسه ركعة واحدة بالإيماء، وذلك أنه إذا اشتد الخوف، كما هو الحال عند المسافة، ونحوها من الاشتباك في القتال، يصلى كل واحد لنفسه ركعة واحدة، راكبًا أو راجلًا، مقبلًا ومدبرًا.

قال القرطبي في تفسيره: (واختلفوا في صلاة الخوف عند التحام الحرب، وشدة القتال، وخيف خروج الوقت، فقال مالك والثوري والأوزاعي والشافعي وعامة العلماء: يصلى كيماً أمكن؛ لقول ابن عمر: «إِنْ كَانَ خَوْفًا أَكْثَرَ

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

(٣) حاشية السندي على النسائي: (١٦٨/٣) لأبي الحسن نور الدين بن عبد المادي السندي، نشر مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب. ط. الثانية: (١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م) تحقيق: الشيخ عبد الفتاح أبي غدة.

من ذلك فيصلي راكباً أو قائماً يومئذ إيماء» قال في الموطأ: مستقبل القبلة وغير مستقبلها^(١)، وهذه من عجيب صورها. فانظر رحمك الله، هل يبلغ شيء من أعداء الناس اليوم ما ذكره العلماء من الشدة والحرج في القتال، ولم يروا مع ذلك رخصة في تركها، أو تأخيرها عن وقتها؟

فعجب أمر هذه العبادة العظمى.. لا تبرأ ذمة المسلم منها حتى يؤديها، وقد جاء تأكيد ربطها بالوقت في ظروف الحرب كما قرأت؛ حتى لا يؤخرها مسلم عن وقتها الذي فرضها الله فيه، فالحرب، بل الاشتباك في المعركة، أي ما يسمى قديماً بـ(المسايفه)؛ ليس عذراً للتأخير الصلاة عن وقتها، بله أن يكون عذراً لتركها. وإنما هو يؤثر فقط في شكل أدائها لا في إسقاطها، أو إخراجها عن وقتها، صلى على أي حال كنت، وخذ حذرك! «إن الصلاة كانت على المؤمنين ككتباً موقوتاً» [النساء: ١٠٣]، في السلم وفي الحرب سواء!

تبصرة:

فإلى الذين يرابطون في أسواق التجارات، أو يرابطون في أسواق السياسات والنقابات، ويفرطون - أو يتکاسلون -

(١) تفسير القرطبي، المسمى بالجامع لأحكام القرآن: (٥/٣٦٩)، لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، نشر دار الشعب، القاهرة. ط. الثانية: (١٣٧٢)، تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني.

في أداء الصلوات، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً؛ إليكم المفهوم النبوى للرباط!.. قال ﷺ في سياق التنبية والترشيد: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟ إساغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطأ إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة.. فذلكم الرباط! فذلكم الرباط! فذلكم الرباط!»^(١).

إنه تفسير نبوى لقول الله تعالى في محكم البلاغ القرآني: «فِي يَوْمٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ، يُسَيِّحَ لَهُ فِيهَا بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ»^(٢) رجالاً لا تُلْهِيهِمْ بِحَرَّةٍ وَلَا يَبْعَثُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَلِيَنْهَا الزَّكُورَةُ يَخَافُونَ يَوْمًا تَنَقَّلُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَرُ»^(٣) ليجزئُهم الله أحسن ما عَمِلُوا وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ، وَاللَّهُ يَرْفَعُ مَنْ يَشَاءُ يُغْنِي حِسَابِهِ» [النور: ٣٦-٣٨].

يا حسرةً على العباد! لو يدركون ما هذه الصلوات؟ ويا حسرة ثم يا حسرة! على نابتة من أبناء الحركات الإسلامية، تعددت بهم السبل من هنا وهناك، وتفرقت بهم الأهواء، وانغمسووا في التيه من كل صوب، وأضاعوا هذه الصلوات، خشوعها ومواقيتها وجماليها؛ فصدق عليهم قوله تعالى: «لَفَّفَ مِنْ بَعْدِهِمْ حَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِنَّاً» [مريم: ٥٩].

(١) رواه مسلم.

تبصرة:

وإن للسياسة والرياسة لشهوة لو كتم تعلقون، وإن لأشعة الإعلام، وزينة الكاميرات لشهوة لو كتم تفكرون. تلك آية فاصلة بين نوعين من الأجيال، بينها ما بين النور والنار من دلالة، فللاية رهبة عظيمة لو تدبرتها، أقرأها ها هي ذي كاملة، فتدبر: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّاسِكَمَنْ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِدَمَ وَمِنْ حَمَلَنَا مَعَ نُوحَ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِنْ هَدَنَا وَلَجَنَبَنَا إِذَا نُنْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّا يَنْهَا الرَّحْمَنَ حَرَوْا سُجَّدًا وَنُكَيْأًا ﴿٦٨﴾ فَلَفَّ مِنْ عَدِّهِمْ حَلْفَ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَأَتَبَعُوا الشَّهْوَةَ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيَّاً ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَأَمَنَ وَعَمِلَ صَلِيْحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٥٨-٦٠].

فتدبر.. ثم تدبر عسى أن تدرك بذوقك ما هذه الصلوات في الإسلام؛ فتبصرها، وتركب أوقاتها؛ لتدور بذلك العابدين سيرًا إلى الله العلي الكبير، فالصلة هي العبادة التي تدخل من خالها إلى نسق الكون، في صحبة الكائنات السائرات من النباتات إلى المجرات، لا فوضى ولا عصيان ولا ترد، ﴿وَكُلْ فِي قَلَّكِ يَسْبُحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، فلما أنت من المدار؟

ذلك نص البلاغ النبوى المستمد من وحي الله رب العالمين، فاختر لنفسك ما ينجيها إن كنت من العاقلين! ﴿فَدَّجَاءُكُمْ بَصَارُكُمْ مِنْ رَتِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَيَ فَلِعَيْهِ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

* * *

(١) رواه البخاري.



في الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

ألم تعلم بأن الإسلام رسالة؟ ألمست أنت مسلماً؟ إن كنت كذلك حقاً؛ فقد تعلقت بك أهم صفات ما انتسب إليه من الإسلام: الرسالية، قال ﷺ في أمر مطلق لكل الأمة: (بلغوا عنى ولو آية) ^(١).

ومن هنا كان المجتمع الإسلامي حركة دعوية بطبيعته، وجماعة إصلاحية بفطرته. إنه مذ أعلن أن محمدًا رسول الله، تقلد - بمقتضى عقيدة الاتباع - مهمة الدعوة إلى الله. فليس عبثاً أن يخض النبي ﷺ بكل وسائل التحرير والتوجيه - على الدعوة إلى الخير والهدى، كما في قوله:

(فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرًا لَكَ مِنْ خَيْرِ النَّعَمِ) ^(١).

ومن هنا شهادة الله بالخيرية لهذه الأمة، في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجْتُ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. إنها صفة عامة في كل من أسلم لله الواحد القهار؛ ولذلك كان حديث تغيير المنكر دالاً على العموم، وليس له ما يقيده - في المأمورين به - إلا شرط الاستطاعة ورتبتها. وذلك قوله ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيَغْيِرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلْسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِقْلِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ» ^(٢)، وقد بينا في كتيب (الفجور السياسي) مراتب التغيير، وطبيعة كل رتبة منها بما يعني عن تفصيله هنا، فكان أن بينا إلزامية ذلك لكل مسلم على قدر مرتبته من الاستطاعة ^(٣).

بل قد عزم النبي ﷺ في ذلك عزمه شديدة على المسلم؛ أن يتجرد للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كلما حضره؛ قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لِيَسْأَلُ الْعَبْدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

(٣) الفجور السياسي: ن. ذلك مفصلاً في المقدمة الرابعة من الكتاب: (٢٧ إلى ٣٦). منشورات الفرقان الدار البيضاء: (٢٠٠٠م).

حتى يسأله: ما منعك إذا رأيت المنكر أن تنكره؟ فإذا لقن الله العبد حجته قال: يا رب رجوتك وفرقت من الناس» ^(١).

فالمسلم المستقيم لا يمكن إلا أن يكون داعية إلى الخير. تلك صفتة فرداً، وجماعة؛ إذ الرابط الاجتماعي القائم على الشهادتين في الإسلام يقتضي ذلك بداعاهة.

قال ﷺ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُنَّ أَوْلَيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقْيِمُونَ الصَّلَاةَ وَيَنْتَهُونَ إِلَى الزَّكَوَةِ وَيُطْبِعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيِّدُهُمُ الْأَنْهَى إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبه: ٧١]، فجاءت صفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المؤمنين، مقرونة بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله، وكل ذلك جاء نتيجة المواصلة في الله.

تلك صفتهم قبل التمكين في الأرض، وتلك صفتهم بعد التمكين، إذ الدعوة إلى الخير هي غاية ووسيلة في الوقت نفسه، تماماً كما تحدثنا عن الصلاة. فالمجتمع المسلم لا يقومحقيقة إلا بالدعوة إلى الله وسيلة. قال ﷺ: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّلْهُمْ بِالْأَنْتِي هِيَ أَحَسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهَمَّدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]. وإذا قام كان من أهم خصائصه الدعوة إلى الله غايةً، إلى جانب

(١) رواه أحمد، وابن ماجه، وابن حبان، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير رقم: (١٨١٨).

الصلاحة والزكاة على سبيل التلازم. فتدبر قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَنُوهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَإَنْوَأُوا الزَّكَوَةَ وَأَسْرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلَهُ عِنْدُهُ أَمْرُهُ﴾ [الحج: ٤١].

ومن هنا رسم الله سبيل الرسول ﷺ صراطاً مستقيماً، يتبعه عليه كل المسلمين، قوامه الدعوة إلى الله على بصيرة، وهي سبيل ثابتة، لا تغير ولا تتبدل، مستقرة كذلك أبداً. قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوكُمْ إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةِ أَنَا وَمَنْ أَتَبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

فقوله تعالى: ﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾ جملة اسمية دالة كما هي عند النحاة والبلاغيين على الثبات. وثباتها هو على ما جاء بعد لتفسير السياق: ﴿أَدْعُوكُمْ إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةِ أَنَا وَمَنْ أَتَبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨] الآية، وجاء تفسيرها جملة فعلية للدلالة على الحركة، وفي ذلك إشارة إلى ما ذكرناه من خصيصة الدعوة الالزامية للجماعة الإسلامية، قبل التمكين وبعده، وأنها صفة تابعة لإسلام المسلم، متى تفاعل مع إسلامه، واستقام عليه.

ومن هنا أيضاً جاء أمر الدعوة والإصلاح مقروراً بالأمر بالصلاحة، في غير ما آية من القرآن الكريم. وذلك على نحو ما في وصية لقمان الحكيم لابنه، في حكاية الله عنه من قوله تعالى: ﴿يَتَبَعَّنَ أَقِيمُ الصَّلَاةَ وَأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَا عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأَمْرِ﴾ [لقمان: ١٧].

وقال ﷺ في وصفِ جمِيلِ المؤمني أهل الكتاب، تناقض فيه جمال تلاوة القرآن قياماً بالليل؛ مع جمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمسارعة في الخيرات: ﴿لَيَسْوُ سَوَاءٌ مَنْ أَهْلِ الْكِتَابُ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَلَوَّنَ إِيمَانَهُ اللَّهُ أَنَّهُ أَيْمَلٌ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣-١١٥].

وجعل من سنته تعالى في الخلق أن كان أمنهم الوجودي والنفسي والاجتماعي؛ مرتبطاً باستقامة أحواهم: وذلك الثبات على الصلاة، والصبر عليها، وحفظ البيئة الدينية المفروضة لظروفها؛ بالإصلاح والنهي عن الفساد. فإذا اختلت تلك الشروط احتل الأمان الوجودي للأمة.

قال تعالى يعرض صورة شاملة لإحسان التدين: ﴿وَأَفْرَمَ الصَّلَاةَ طَرَقَ النَّهَارِ وَرَلَفَأَمَّنَ أَيَّلَ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَّ الْسَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرُى لِلَّذِكَرِيْنَ﴾ [١١٥] وأصيَرَ فإنَّ الله لا يُضيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ [١١٦] فلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولَوْ بَقِيَّةٍ يَتَهَوَّنُ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَبْحَيَنَا مِنْهُمْ وَأَتَيَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُثْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِيْمِينَ [١١٧] وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهَلِّكَ الْقَرَى بِطُلْمٍ وَأَهْلَهَا مُصْلِحُونَ﴾ [١١٤-١١٧].

تبصرة:

إلا أن لنا ها هنا قاعدة مشهورة عند العلماء، وهي: أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعوة إلى (الخير) أولاً. والخير كل الخير هو معرفة الله، فكل معروف إنما كان كذلك من حيث هو يؤدي إلى معرفة الله، أو هو عين معرفة الله، وكل منكر إنما كان كذلك من حيث هو جهل بالله. فإذا اتفق أن كان أمر معروف ما؛ يتبع عنه منكر أكبر منه؛ توجه حيئه وجوب ترك الأمر بذلك المعروف.

وكذلك إذا كان نهي عن منكر ما يؤدي إلى ما هو أفظع منه؛ توجه وجوب ترك ذلك النهي؛ إلى حين، كما قرره الإمام ابن تيمية رحمه الله في قوله: (وجماع ذلك داخل في القاعدة العامة: فيما إذا تعارضت المصالح والمقاصد، والحسنات والسيئات، أو تزاحمت؛ فإنه يجب ترجيح الراجح منها (...)). فإن الأمر والنهي وإن كان متضمناً لتحصيل مصلحة ودفع مفسدة، فينظر في المعارض له، فإن كان الذي يفوت من المصالح أو يحصل من المفاسد أكثر؛ لم يكن مأموراً به، بل يكون حرماً إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته^(١). وربما كانت الوسائل المستعملة في ذلك سيئة، أو اختيار العبارات غير موفق، أو نحو ذلك من وسائل تحقيق المناط الفاشلة ابتداء، مما لم يراع فيه الزمان وأهله، فيؤدي إلى عكس التائج المرجوة.

(١) كتاب الاستقامة: (٢١٨/٢)، ومجموع الفتاوى (١٢٩/٢٨).

ولذلك كانت الآية المشهورة على السنة الدعاة: ﴿وَلَتَكُنْ أَمْمَةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَا يَنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، من ألطاف الإشارات إلى هذا المعنى العجيب، الذي يجعل المرء يضع نصب عينيه تحقيق مفهوم (الخير) أولاً، فلا عبرة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إن تحقق الداعي من أنه يخطئ به الوصول إلى الخير. وإنما الخير - كما قلنا - هو التعريف بالله. هذا معنى عظيم من أسرار كتاب الله.. فتدبر!

وعليه، فقد جاءت الآية في سياق امتنان الله على المؤمنين بنعمة الإسلام، والتأليف بين قلوبهم، وإنقاذهم من النار، وإرجاع الفضل في كل ذلك إلى الله. فاقرأ السياق كله وتدبر، ثم أنصت إلى قلبك: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقْوَاهُ وَلَا تَمُونُ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرُّوا وَإِذْ كُرُوا نَعْمَتَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَلَمَّا يَنْ قُلُوبُكُمْ فَاصْبَحُمْ يَنْعَمْتُهُ إِغْوَانَا وَكُنْتُمْ عَلَى شَقَّاحَرْفَرَقْ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ مَا يَرِيُّوكُمْ لَعَلَّكُمْ تَهَدُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أَمْمَةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَا يَنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَخَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنُتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٢-١٠٣].

إنها آيات تُشدُّ إليها رحال المصلحين الربانيين.. فأبصر!
ألا ما أبعد واقعنا المنحط عن سمائها العالى الرفيع! فالدعوة

إن لم ترَعِ أصل الاعتصام بحبل الله، وعدم التفرق عنه، ولم تنضبط بقصد النجاة من النار، للداعي والمدعو سواء؛ كانت منحرفة عن (الخير)، وإن كانت في ظاهرها (أمراً معروفاً ونهياً عن منكر)، فلا قيمة لهذا إلا إذا صار إلى خير. فتدبر! ثم أبصر!

ولنجعل خاتمة كلامنا في هذا البلاغ الخامس، آيات الدعوة إلى الله من سورة (فصلت)، ذات (القواعد العشر)، إنها خلاصة القول فيه، وجماعه. فقد فصلت المنطلقات تفصيلاً، وحددت الغايات تحديداً، وضبطت الوسائل ضبطاً. إنها منهج متكامل بذاته في الدعوة إلى الله. وإن الناس اليوم لو أخذوا بها وحدها في هذا الشأن لكتفهم. اقرأها أولاً، ثم لتعاون معًا على تدبرها ثم إبصارها آية آية إن شاء الله؛ عسى أن نصل إلى رسم منهاج قرآنى للدعوة إلى الله.

قال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا رَبِّنَا اللَّهَ ثُمَّ أَسْتَقْدَمُوا تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَبَشِّرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ» ^{٢١} تَنَزَّلْ مَنْ أَوْلَيَّاً كُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِي هَمَّا مَشَّتْهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِي هَمَّا مَاتَدُعُونَ» ^{٢٢} تَنَزَّلْ مَنْ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ^{٢٣} وَمَنْ أَحْسَنْ قَوْلًا مَمَّنْ دَعَاهُ إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَلِحًا وَقَالَ إِنَّى مِنَ الْمُسْلِمِينَ» ^{٢٤} وَلَا سَتَوَى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيْئَةُ أَدْفَعَ بِالْقِلْيَى هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي يَبْتَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَانَهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ» ^{٢٥}

وَمَا يُلْقَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَهَا إِلَّا ذُو حَظٍ عَظِيمٍ ^{٢٦}
وَإِمَّا يَزَّغَنَكَ مِنَ الشَّيْطَنِ نَزْغٌ فَأَسْعَدَ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ الْسَّمِيعُ الْعَلِيمُ» ^{٢٧} [فصلت: ٣٦-٣٠].

هذه هي القواعد العشر في الدعوة، فاعقد أناملك يا صاح كما تفعل عند إحصاء الأشياء، وأحص معي أصولها من خلال هذه الآيات واحدةً واحدةً، وتدبر!

تبصرة: القواعد العشر في الدعوة إلى الله:

١- «إِنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا رَبِّنَا اللَّهَ».

٢- «ثُمَّ أَسْتَقْدَمُوا».

٣- «تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا»
عدها واحدة إلى قوله تعالى: «تَنَزَّلَ مَنْ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

٤- «وَمَنْ أَحْسَنْ قَوْلًا مَمَّنْ دَعَاهُ إِلَى اللَّهِ».

٥- «وَعَمِلَ صَلِحًا».

٦- «وَقَالَ إِنَّى مِنَ الْمُسْلِمِينَ».

٧- «وَلَا سَتَوَى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيْئَةُ».

٨- «أَدْفَعَ بِالْقِلْيَى هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي يَبْتَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَانَهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ».

٩- «وَمَا يُلْقَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَهَا إِلَّا ذُو حَظٍ عَظِيمٍ».

١٠ - ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَنِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

هذا هو الظاهر الجلي، ولكن يجوز أن تجد أكثر، فالقرآن بحر آخر بالكنوز، لا يحصي معانيه إلا الله ﷺ.

* تبصرة:

أما القاعدة الأولى: فهي أن (قول: ربنا الله) إعلان للتوحيد. تدبر.. إنه (قول). وهذا شيء مهم في حد ذاته، (قوله) ذلك إعلان له، ودعوة إليه، وترسيخ له في المجتمع. ألم تسمع قول النبي ﷺ للذى سأله: أن يقول له في الإسلام شيئاً، لا يسأل عنه أحداً بعده؛ فقال له ﷺ: « قل آمنت بالله فاستقم »^(١) ، وفي رواية أخرى: « ثم استقم ». هكذا (قل) تصرح لا تلميحاً، إعلاناً وإشهاراً لا تورية وتقية، « إِلَّا مَنْ أَكْثَرَهُ وَقْلَبَهُ مُطْمِئِنٌ بِالْإِيمَانِ » [التحل: ١٠٦]. فإنما أصل الدين إعلان توحيد الله، ورفع راية (لا إله إلا الله). فارفعها يا صاح عالياً عالياً، ارفعها فوق كل راية؛ حتى لا تظهر فوقها راية، « وَيَكُونُ الَّذِينُ كُلُّهُمْ لِلَّهِ » [الأنفال: ٣٩]، قل: (آمنت بالله) حيثما حللت وارتحلت! قلها في كل مكان.. أعلن تدينك ولا تخفيه، أشهر سلوكك الإسلامي، وانتهاءك الحضاري، وصيغتك الربانية، وكونك من أمة

(١) رواه مسلم.

محمد ﷺ! عش بهذا المنطق، وبهذا الشعور واعترض به، ولا تحجل! ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٤٣]، إنه مبعث الفخر إذا افتخرت الأمم بتفاهتها المادية، وخر عبلاها الفكرية، هذا دين رب الكون كله فاعترض به، ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكُلِّ مُتَّقِيْنَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٨].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ ، تلك هي القاعدة الأولى، فاحفظها بوجданك، فقد جعلها الله أول شرط الفلاح، فاعرف ربك وعرف به، على ما فصلنا في البلاغ الثاني من هذا الكتاب، تكن قد قلت: ربنا الله.

* تبصرة:

وأما القاعدة الثانية: فهي الاستقامة على قولك ربنا الله.. ﴿ ثُمَّ أَسْتَقِمُوا ﴾؛ أي: الالتزام بما أقررت، والوفاء بما شهدت به على نفسك، وشهد به عليك الله، والملائكة، والناس أجمعون. ذلك صراط مستقيم أقررت به، فاستقم عليه عقيدة وسلوكاً، ظاهراً وباطناً، خوفاً ورجاء؛ تكن من الصادقين. ذلك أن الاستقامة على توحيد الله - معرفة وتعريفاً - في ربوبيته وألوهيته، وما تفرع عن هذه وتلك، من معان رفيعة سامية، كعبادته تعالى بما له من أسماء حسني وصفات علّى، إثباتاً لها، ودعاً بها، وسيراً إليه في أنوارها.. كل ذلك وما في معناه من مقتضياته يجعلك مسلماً حقاً، ويحقق وعد الله فيك من الأمان في الدنيا والآخرة. وبيانه كما يلي:

* تبصرة:

القاعدة الثالثة: التبشير وعدم التنفير، وذلك ببناء الكلام في الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ على قصد تحبيب العباد في رب العباد. إذ على ذلك يبني مفهوم الخوف والرجاء في الحب^(١).

القاعدة الثالثة: التبشير وعدم التنفير، وذلك ببناء الكلام في الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ على قصد تحبيب العباد في رب العباد. إذ على ذلك يبني مفهوم الخوف والرجاء. انظر كيف بشر الله من استقام على ذلك بالجنة وبالولاية الربانية الحقة، والنجاة من غضبه وعذابه. إنه شعور جميل جداً. شعور بالأمن الروحي، والسلام الوجداني، يفيض بالقلب المؤمن الصادق. إن العبد ليجد مجال الكرم الإلهي في نفسه، ونور رحمته ينبعث من صدقه، في توجهه وسيره إلى الله، مع خوفه من زوال ذلك؛ مما ينشط حركة سيره، وسرعة إقباله على ربه رغباً ورهباً. ف(البشرى) هي أعظم ما يحب الإنسان أن يسمع في حياته. وهي أرفع منازل الدعوة إلى الله، وأرقاها غاية ووسيلة. إلا أنه معلوم شرعاً وعقلاً، أن البشرى لا تتحقق؛ إلا إذا لابسها خوف عدم حصول المرتخي.

فالتخويف أساس لتحقيق التبشير؛ ولذلك قلما ذكر الترغيب في القرآن إلا وذكر معه الترهيب. فهما حقيقةتان متلازمتان. إلا أن ضابط ذلك وجماعها هو التحبيب. أي لا يجوز أن يُفْرِط المرء في أحدهما، أو يُفْرِط؛ بما يؤدي إلى تنفير النفس عن المقصود، وتيئيسها من الله والعياذ بالله. بل يجب أن يكون التخويف على قدر ما يحب العباد في رب

العباد، فها هنا ميزان من الحكمة قل من يحسن من الناس؛ ولذلك قال ابن القيم رحمه الله في عبارة جامعة: (ويندرج الخوف والرجاء في الحب)^(٢).

فاجعل التبشير بالخير في الدنيا والآخرة جوهر خطابك للناس، واجعل النذارة له مصدقة؛ حتى لا تتواكل الأنفس، وترتاحي عن أداء حق الله. واقتصر إلى تعريف الخلق بالله فإنهم إن عرفوه حقاً أحبوه؛ فتعلقوا بعبادته آتذ خوفاً وطمعاً. ففي الصحيحين: «أن النبي ﷺ بعث معاذًا وأبا موسى إلى اليمن؛ قال: يسراً ولا تعسراً، وبشراً ولا تنفراً، وتطاوعاً ولا تختلفاً»^(٣)، وفي صحيح مسلم: أن أبا موسى الأشعري ﷺ قال: بعثني رسول الله ﷺ وَمَعَادًا إِلَى الْيَمَنِ. فَقَالَ: «أَدْعُوكُمْ النَّاسَ، وَبَشِّرُوكُمْ وَلَا تُنْفِرُوكُمْ، وَيَسِّرُوكُمْ وَلَا تُعَسِّرُوكُمْ»^(٤).

ومن ألطف النصوص في هذا المعنى ما صرح عنه ﷺ أنه قال: «إن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه: إن رحمني سبقت غضبي»^(٥)؛ فهذا رب العالمين يعلمنا أن نجعل خطاب الرحمة سابقاً في دعوتنا، ونجعل لذلك النذارة خادمة للبشرة؛

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم: (١٢٤/١) نشر دار الكتب العلمية بيروت، تحقيق: زكريا علي يوسف.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه البخاري.

لأن الكل مشمول بقصد المحبة. وما أجمل وصف الله لرسوله ﷺ، في ذلك، وهو سيد الدعاة إليه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَقْرَبِكُمْ مَعِنَّا زِيَّعَنِي مَاعِنَّا حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبه: ١٢٨] ، فأشد الناس خوفاً من الله هو أشدهم محبة له. بهذا المنطق وجب أن تبني خطابك الدعوي يا صاح، فما تفرد النذير في موطن من الكتاب والسنة إلا لحكمة خاصة.

*تبصرة:

القاعدة الرابعة: الدعوة إلى الله لا إلى ذات الاهيات والمنظمات. تدبر قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحَسَنْ فَوْلًا مِّمَّنْ دَعَاهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [فصلت: ٣٣] ، فهو أولاً متفرع عن (القول) الأول: ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ وفي سياقه. إعلان التوحيد بالتعرف على الله والتعريف به، أمر متضمن لما نحن فيه: (قول الدعوة إلى الله) فليس الداعي الحق إلى الله إلا معرفاً به؛ ولذلك كان هذا أحسن ما يعلنه العبد في طريق عبادة الله في الأرض: ﴿وَمَنْ أَحَسَنْ فَوْلًا ...﴾ [فصلت: ٣٣] ، ثم هو (دعوة إلى الله) على غرار قوله في سياق آخر مما سبق بيانه: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلٌ أَدْعُوكُمْ إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسَبَّحَنَ اللَّهَ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشَرِّكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨] ، فهي دعوة إلى (الله) جل جلاله وجلاله، توحيداً وتفريداً وتجريدًا؛ رغبة ورهبة.. فتدبر..! لا ضير أن تنظم عملك ضمن أي تنظيم دعوي،

ما دامت أصوله العقدية سليمة، وما دام منهجه الدعوي مستقيماً على الكتاب والسنة، ولكن احذر أن يختلط عليك الأمر، فتدعو الناس إلى التنظيم بدل دعوتهم إلى الله، فتكون قد اتخذت التنظيم آئذ وثناً يبعد من دون الله الواحد القهار.

اجعل الله غايتك على كل حال. واتخذه هدفًا لدعوتك: تعرف عليه وتعرف به؛ تكن أحسن القائلين في الدين. اجعل تنظيمك أو جماعتك خادمة الله، ولا تجعل الله خادماً لتنظيمك أو جماعتك، واحذر! فهذا منزلق قليلاً يسلم منه أحد من المتحزبين. فتدبر..! تلك لطيفة من لطائف قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحَسَنْ فَوْلًا مِّمَّنْ دَعَاهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [فصلت: ٣٣] ، وقد فصلنا الكلام في هذا المعنى بكتابنا (البيان الدعوي)، معززاً بأدلة الوفية هناك، فارجع إليه إن شئت، والله الهادي إلى الحق، ولا حق سواه.

*تبصرة:

القاعدة الخامسة: في أن العمل الصالح أساس الدعوة إلى الله، وعلى رأسه الصلاة. ولذلك قال: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ عطفاً على إحسان القول. فلا قول حسن إلا إذا اتبني على عمل صالح، ثم اتبني عنده عمل صالح. فوويل لمن ناقضن أفعاله ما أظهر للناس من أقواله. إن الاستقامة التي اشترطت على الذين قالوا ربنا الله هي هنا قد سبقت مسأفاً

دعويًا ظاهراً، بمعنى أنه يجب أن تتبه إلى أن الداعي إلى الله يدعو بقوله وبفعله، كما أن المفتي يفتى الناس بقوله وبفعله شاء أم أبى. فسلوكه الفعلي مناط اتباعه، تلك سنة الله في الخلق. فاجعل عملك صالحًا حتى تكون به مصلحة؛ وأجرك الله مرتين.

* تبصرة:

القاعدة السادسة: إعلان الاتهاء لكل المسلمين، والحرص على عدم تفريق وحدتهم العامة. «وَقَالَ إِنَّمَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ» فـ (من) هذه تفيد التبعيض كما هو معلوم عند اللغويين. والمعنى أنك واحد من المسلمين، جزء من كل. فالدعوة إلى الله هي دعوة إلى الله، وانتهاء عام لكل المسلمين. وفي ذلك راحة من مضائق الهيئات والجماعات، فـ «أَجْمَلُ أَنْ تُحِبَّ أَهْلَهَا» الداعي إلى الله إذا سئلت: (من أي جماعة أنت؟) فـ «فَمَاذَا بَعْدَ (من المسلمين) ! ذلك الحق من رب العالمين، «فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَإِنَّ تُصْرِفُونَ»» [يونس: ٣٢].

* تبصرة:

القاعدة السابعة: «وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ»، هذا مبدأ ثابت من مبادئ القرآن، فـ «أَدْقَعْ بِإِلَيْهِ هَرَبَ أَهْلَهُنَّ فَإِذَا أَلَّذَى الَّذِي يَنْتَكُ وَيَنْتَهُ عَدَوُهُ كَانَهُ وَلِيُّ حَمِيمٌ» فالعلاقة بين القاعدتين، هي العلاقة بين المبدأ الكلي والتطبيق الجزئي، كما العلاقة بين المطلق والمقييد، وذلك مثلاً حيث يواجهك الخصوم في الدعوة إلى الله من أهلك وعشيرتك، أو حكومتك، أو يحاصرونك؛ فـ «فَاقْتُدْ بِرَسُولِ اللَّهِ»، ولا تلتفت إلى غيره، إياك أن تغلبك الرغبة الجامحة في الانتقام؛ لا يستفزنك تحرشهم، ولا يثيرنك جهلهم وعنتهم، خاصة وأن مناط الأحكام في الدعوة في هذا الزمان غالب أمره أنه ينزل في بلاد المسلمين، ويخاطب من يشهد أن لا إله إلا الله

ذلك دعويًا: لا تستوي الدعوة إلى الله بالتي هي أحسن، والدعوة إليه بالتي هي أخشن. لا يستوي في ميزان الله من يقرب الناس من الله ويعرفهم بجماليه وجلاله، ومن ينفرهم عنه ويجهلهم بقدرها، وإن ظن أنه بذلك يحسن صنعاً، فلا تغتر به! هذا كتاب ربنا واضح في المسألة وضوح الشمس في رابعة النهار. وتلك سنة نبينا قاطعة بأن المنهج الدعوي الإسلامي إنما هو ما اتسم بالحلمة والأناة، والتيسير على الناس في طريق تعريفهم بحقوق ربهم. ذلك هو الحق الثابت أبداً: «وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ».

* تبصرة:

القاعدة الثامنة: دفع الشر بالخير. وهي تفسير للقاعدة السابقة، وبيان لها، وتحقيق خاص لمناطها العام: «أَدْقَعْ بِإِلَيْهِ هَرَبَ أَهْلَهُنَّ فَإِذَا أَلَّذَى الَّذِي يَنْتَكُ وَيَنْتَهُ عَدَوُهُ كَانَهُ وَلِيُّ حَمِيمٌ» فالعلاقة بين القاعدتين، هي العلاقة بين المبدأ الكلي والتطبيق الجزئي، كما العلاقة بين المطلق والمقييد، وذلك مثلاً حيث يواجهك الخصوم في الدعوة إلى الله من أهلك وعشيرتك، أو حكومتك، أو يحاصرونك؛ فـ «فَاقْتُدْ بِرَسُولِ اللَّهِ»، ولا تلتفت إلى غيره، إياك أن تغلبك الرغبة الجامحة في الانتقام؛ لا يستفزنك تحرشهم، ولا يثيرنك جهلهم وعنتهم، خاصة وأن مناط الأحكام في الدعوة في هذا الزمان غالب أمره أنه ينزل في بلاد المسلمين، ويخاطب من يشهد أن لا إله إلا الله

وأن محمداً رسول الله. فكيف تنزع إلى العنف الجاهلي؟ حاشا الجهد في سبيل الله فهو ذروة سلام الإسلام، إنك إن تفقد منهج القرآن، وتخطئ سنة الرسول ﷺ في الدعوة إلى الله؛ تفقد صفة الداعي إلى الخير. والله أمرك أن تدعوا إلى الخير، كما بينت لنا الآية قبل: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وتفقد صفة الداعي إلى الله، فلا تكون داعية إلا إلى نفسك.

حدار من التشنج، حدار من الغضب لنفسك. ما دامت قد جعلت نفسك لله فأجعل الكل لله، ولا تتحرك في الدعوة إليه تعالى إلا بما تقدر أنه لله. ﴿أَدْفَعْ بِالْقَيْرَانَ هَيْ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي يَبْيَنَكَ وَبِيْنَهُ، عَدُوُّكَ كَانَهُ، وَلِيْ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]. تلك مقدمة مسلمة في منهج الله، نتيجتها واضحة حاسمة، هي: ﴿فَإِذَا الَّذِي يَبْيَنَكَ وَبِيْنَهُ، عَدُوُّكَ كَانَهُ، وَلِيْ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]. تلك هي الحكمة المذكورة بوضوح في قوله تعالى: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحَكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِيلُهُمْ بِالْقَيْرَانِ هَيْ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمَهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]. عجيب كم ضل كثير من الدعاة - مع الأسف - عن منهج الله؛ لما هجروا القرآن إلى غيره من الأهواء، مستجبيين لردود الأفعال. ألا ما أوضح القرآن، لو يصررون.. ﴿وَلَقَدْ يَسَرَّا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُذَكِّرٍ﴾ [المرسال: ١٧]، ولكن الضلال عمى. أقرأ مرة أخرى.. وتدبر: ﴿أَدْفَعْ بِالْقَيْرَانَ هَيْ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي

بِيْنَكَ وَبِيْنَهُ، عَدُوُّكَ كَانَهُ، وَلِيْ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]، ذلك هو الأصل في المنهج الدعوي، وما سواه جزئي حادث، ولكل حادث حديث. وإنما الغاية عندنا في هذا الكتاب تعريف الأصول.

* تبصرة:

القاعدة التاسعة: في الصبر على الأخذ بالمنهج القرآني. ذلك أنه يحمل النفس في معاشرة الناس على ما تكرهه، من تحمل الأذى في الله، ودفع الشر بالخير، ودفع الجهة بالحكمة والموهبة الحسنة، ودفع العداء بالتي هي أحسن. كل ذلك شديد على النفس؛ لأنها جبت على محنة ذاتها، والانتقام لها؛ ولذلك قال في القاعدة التالية: ﴿وَمَا يَقْنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يَقْنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥]، فدرب نفسك على الصبر حيث يجب الصبر، وعلمهها كيف تکبح جماحها؛ حتى لا ترد الجهل بالجهل، والشر بالشر؛ فترى عن الصراط المستقيم.

* تبصرة:

القاعدة العاشرة: الحذر من الشيطان. وها هنا لطيفة من اللطائف، ذلك أن بعض المسلمين قد يغيب عنه في فتن الانغماس الاجتماعي؛ أن الشر من الشيطان. حقيقة كبرى قد تنسى.. اذكر هذا جيداً وجدد إيمانك به، إن الشيطان

الملعون خلق من خلق الله، بل هو شر خلق الله، خلقه لحكمة الابتلاء، إنه ليس وهو لا خيالاً، إنه حقيقة، إنه يسعى لتضليل عباد الله، وأنت واحد من يستهدفه الشيطان بغوايته، وكل الناس معرض له. فتدبر.. يجب أن تعرف الشيطان وحيله الخبيثة، فالمؤمن الكيس الفطن هو من يسأل عن الشر مخافة أن يلحقه، فاسأله عنه حتى تعرفه. فإنك إن تجهر به تقع في أحابيله. والله يعلم عرفنا به في غير ما آية من القرآن، فقال تعالى: ﴿ يَنْبَغِي إِذَا لَا يَهْتَدِنَّكُمُ الْشَّيْطَنُ كَمَا أَخْرَجَ أَبُو يُمَّةَ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزَعُ عَنْهُمَا لِيَسْأَمُهُمْ سَوْءَةَ هِمَّا إِنَّهُ يَرِكُمْ هُوَ وَقِيلُهُ مَنْ حَيَثُ لَا تُرَوُهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الْشَّيْطَنَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وقال يحيى في وجوب اتخاذ الشيطان عدواً: ﴿ إِنَّ الْشَّيْطَنَ لَكُوْنُوا عَدُوٌ فَلَا يَخْذُلُهُ عَدُوٌ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِكُوْنُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٦]، وقال: ﴿ لَعْنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَنْجَذِنَ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴾ ١١٦ وَلَا يُخْلِنَّهُمْ وَلَا مُنِيبَهُمْ وَلَا مُرْتَهَمْ فَلَيَبْتَكُنْ إِذَا نَأْتُهُمْ وَلَا مُرْتَهَمْ فَلَيَعْبِرُكَ حَقْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَخَذُ الشَّيْطَنَ وَلِيَسَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ حَسِرَ حُسْرَانًا مَمْيَنًا ﴾ ١١٧ يَعْدُهُمْ وَيُمْنِيْهُمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَنُ إِلَّا مُغْرِبًا ﴾ ١١٨ أَوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾ [النساء: ١١٨ - ١٢١].

اعرف عدوك تتصرّف عليه!

اعرف الشيطان؛ حتى تعرف طبيعة العلاقة بينه وبين

ال المسلم عموماً، وبينه وبين الداعية إلى الله خصوصاً. إنك إذ تدعوا إلى الله تقوم بهدم ما بناه إبليس اللعين؛ فتزداد عداوته لك أضعافاً مضاعفة، ولكنك إن اعتصمت بالله واستعذت به لن يصل إليك، فلا سلطان له على عباد الله الصالحين.

إن أسهل ما يمكن أن يزرعه في قلبك هو أن يشغلك بالحسن دون الأحسن، فإذا استجبت له نزل بك دركة، فدركة؛ حتى يجعلك من الغاوين، ومن هنا قال يحيى من بعد ما أرسى قواعد المنهج الدعوي: ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَنِ نَزْغٌ فَأَسْتَعِدُ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [فصلت: ٣٦]، لقد كان السياق في الحض على الصبر، والثبات على منهج الدفع والتي هي أحسن، وعدم الاستجابة لاستفزاز خصوم الدعوة: ﴿ أَدْفَعْ بِإِلَيْتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا لَذِي بَيْنَكَ وَبَيْنِهِ عَدَاوَةٌ كَانَهُ وَلِيُّ حَمِيمٌ وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ ، فقال بعد ذلك مباشرة: ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَنِ نَزْغٌ فَأَسْتَعِدُ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾، فجاءت القاعدة العاشرة في الاستعاذه من نزع إبليس اللعين؛ خاتمة للقواعد العشر، في المنهج القرآني للدعوة؛ حتى يستشعر الإنسان استقامة ما هو عليه من صراط، وصواب ما سار عليه من سبيل، وأنه ماض في ذلك على بصيرة يدعوه إلى الله. فمهما حصل من اختلال طارئ، أو ابتلاء سابق؛ فثبت على منهجه لا تغير ولا تبدل، ما دمت تنهل من القرآن، كتاب

الله رب العالمين. وكلما ألقى الشيطان في روعك من الوساوس ما ألقى؟ ﴿فَأَسْتَعْدِ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ أَسْمَعُ الْعَالَمِ﴾.

تلك بلاغات القرآن العملية التي رسمها الله لعباده صراطاً مستقيماً، فما بقي الآن إلا ضابطها العام، وقانونها الكلي؛ لضمان توقعها في واقع الحياة بصورة نموذجية؛ سيراً إلى الله وسلوحاً إليه تعالى، وهو البلاغ السادس.

* * *



لا سبيل إلى كل ما ذكر من بلاغات قرآنية؛ إلا عن طريق اتباع المبلغ: محمد بن عبد الله، رسول الله إلى العالمين، هذه عقيدة، بل أصل من أصولها الكبرى، وكلى من كلياتها العظمى، لا استقامة لشيء من ذلك كله إلا به، وإن شئت فقل: هذا هو البلاغ القرآني الجامع، والضابط الكلي المانع. قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْذَكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يَعِبِّدُكُمُ اللَّهُ وَيَنْفِرُ لَكُمْ دُنُوبُكُمْ وَاللَّهُ أَعْفُورَ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣٢، ٣١]. والنصوص القطعية في هذا المعنى كثيرة.

فهذا أمر لا يباري فيه إلا جاهم بحقيقة الإسلام، أو من لا إيمان له به أصلاً.

فإذن؛ كل حديثنا مما كان قبل؛ لا يمكن تحقيق مناطه، وتصور تطبيقه إلا من خلال السنة النبوية، وقول النبي ﷺ في هذا واضح وضوح الآيات: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»^(١). لا نقاش في هذا، وما هو بحاجة منا إلى تقرير أو تحرير. وإنما الحاجة في بيان طبيعة الاتباع للرسول عليه الصلاة والسلام: كيف؟ هذا الذي تجرب فيه كثير من الناس.

وهذا هو مربط الفرس، وبيت القصيد. كيف تبع السنة؟ وكيف نتأسى بالرسول ﷺ؟ ذلك أن كثيراً من المتدلين اليوم يسيء للسنة من حيث هو يزعم أنه متبع للسنة، ويحارب السنة من حيث هو يظن أنه ينافح عن السنة. وتلك أم المصائب؛ إذ يصنع الإنسان عكس ما يعتقد أنه يصنعه، لقد اقتصر كثير منهم في السنة على منهج التعلم دون التزكية والتحلم، فضلوا وأضلوا.. تدبر قول الله تعالى: «لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنفُسِهِمْ يَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ، وَيُزَكِّيْهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» [آل عمران: ١٦٤] وقوله ﷺ: «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأَئِمَّةِ رَسُولًا مِنْهُمْ يَسْلُلُ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ، وَيُزَكِّيْهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» [الجامعة: ٢].

تبصرة:

إن النبي ﷺ بتلاوته القرآن على المؤمنين، ومدارسته معهم؛ يقوم بعمليتين اثنتين لا واحدة: (التزكية والتعليم)، فاقرأ الآيات وتدبر.. فعجبًا، كيف فهم بعضهم من اتباع السنة والتأسي بها مجرد استظهار بعض الأحاديث، دون الرحيل إلى أخلاقها والتزكي بمقاصدها، والانتقال إلى منازلها؟

أما التعليم: فهو للحلال والحرام وسائر أحكام القرآن وفقه السنة، وأما تعلم ما تحصل به الكفاية من ذلك لعبادة الله، والالتزام بحدوده؛ فهو فرض عين على كل مسلم ومسلمة، في كل ما يهمه من شؤون العبادات والمعاملات.

وأما التزكية: فهي التطهير للنفس وال التربية لها، «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَكَّنَهَا^(١) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا» [الشمس: ٩، ١٠]، فالرسول الكريم كان حريصاً على تطهير صحابته من الأهواء، والارتقاء بهم عبر مدارج الإيمان، إلى ما هو (أحسن عملاً)، من مثل قوله لعبد الله بن عمر: (نعم الرجل عبد الله لو كان يصلى من الليل)^(٢).

وانظر - رحمك الله - كيف ذكر (التزكية) قبل (التعليم) في الآياتين، مع أنه لا تزكية بغير تعليم ابتداء، على ما ترجم له الإمام البخاري رحمه الله في كتاب العلم من

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

صحيحه قال: (باب العلم قبل القول والعمل)، وقد تقدم ذكر التعليم على التزكية - بناء على الأصل - في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَبَقْتَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتَّلَوُ عَلَيْهِمْ مَا يَتَّبِعُ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَرَزَّكَهُمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

صحيح أن العطف بالواو - في الآيات كما هو في العربية - لا يفيد الترتيب، لكن التقديم والتأخير في البلاغة يفيد الأهمية؛ ومن هنا جاءت التزكية في الآيتين الأوليين مقدمة على التعليم؛ من باب ذكر المقاصد قبل الوسائل؛ لشرف الغاية وعلوها؛ وحتى لا يفتتن السائر بالوسيلة عن الغاية؛ فيفضل عنها، ويكون من الخاسرين.

تقول لي: وما بال التحلم؟ أقول: ذلك أنه ﴿مَا عَلِمَ وَلَا زَكَّى إِلَّا بِحَلْمٍ﴾، فهو الخاصية العظمى لمنهج التعليم والتزكية لديه ﴿كَمَا سترى بحول الله﴾.

والحَلْمُ: الرزانة والكياسة والرجمة والأنا، وهو ضد الجهالة والسفه، والتَّحَلُّمُ: تخلق الحلم، وتكلفه؛ حتى يصير لك خلقاً. ومعنى (اتباع السنة تحلماً): التخلق بأخلاقه ﴿كَمَا سترى بحول الله﴾ في ذلك؛ أي في حلمه، وصبره على جهالة الناس، وسفههم. قال عليه الصلاة والسلام: «إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم. ومن يتحرى الخير يعطيه، ومن يتق الشر يوقه»^(١).

(١) رواه الدارقطني في الأفراد عن أبي هريرة، ورواه الخطيب البغدادي عنه، وعن أبي الدرداء، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير: (٢٣٢٨).

تبصرة:
إن الاتباع العام للرسول ﷺ في كل شيء، إنما مفتاحه التحلم بحلمه.

وهذا - من حيث المعنى - في كتاب الله، ألم تقل عائشة رضي الله عنها: (كان خلقه القرآن)؟^(١) فالعود إذن للقرآن، نبحث فيه عن معنى الاتباع ومفهوم التأسي، الآية واضحة ظاهرة لكل ذي قلب شهيد، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، وإنها لآية عظيمة، وحكمة بالغة، وصراط مستقيم. تدبر هذه العبارة الربانية: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ فاما الأسوة: فهي التَّحَلُّقُ. فالتأسي: اتباع السيرة، والتخلق بما كان عليه المتأسى به من خلق عام، والخلق هنا هو كل الأوصاف التي كان يوصف بها في سلوكه وعمله، عدا الأوصاف الجبلية، التي لا يمكن اكتسابها بالتأسي ولا بغيره، ووصف الأسوة بـ (الحسنة) دليل على علو شأن الخلق النبوي، وكمال سيرته، وسلوكه العام والخاص، فهو لذلك كان أرقى نموذج بشري للتأسي والتخلق، أليس هو (رسول الله) المصنوع على عين الله، والمتأنب بأدب الله؟ بل والله، فإذا من هاهنا يبدأ التأسي والاتباع، ومن أخطأه هذا المدخل للسنة النبوية فقد أخطأها كلها؛ إذ أتى البيوت من غير أبوابها.

(١) رواه مسلم.

وتلك شهادة الله لرسوله ﷺ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ حُكْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]، تلك هي الأسوة الحسنة؛ ولذلك قال بعد: ﴿ لَمَّا كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١]؛ إذ الخلق الحسن هو باب العمل الصالح، وسبب قبوله، فليس عبّاً أن يصرح الرسول ﷺ بقوله العجيب: (ليس شيء أثقل في الميزان من الخلق الحسن) ^(١)، وقوله في نحو هذا أيضاً: (إن أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وإن حسن الخلق ليبلغ درجة الصوم والصلوة) ^(٢). ولذلك فإنه: (لا يكون المؤمن لعاناً) كما صح عن النبي ﷺ ^(٣)، وقال لعائشة أم المؤمنين: إذ استغربت منه أنه دارى أحد الناس من يكره: (يا عائشة! متى عهدتني فحاشاً؟ إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيمة من تركه الناس انتقاء شره) ^(٤). والقصة كما في صحيح البخاري أنه (استأذن رجل على رسول الله ﷺ، فقال: أئذنا له، بئس أخو العشيرة! أو ابن العشيرة. فلما دخل ألان له الكلام. قلت: يا رسول الله. قلت الذي قلت، ثم أنت له الكلام؟) فقال لها ﷺ ما قال. قلت: هذا حديث تشد إليه رحال القلوب، ﴿ لِمَنْ كَانَ لَهُ ﴾.

(١) رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير: ٥٣٩٠ و ٥٧٢١.

(٢) رواه البزار بسنده صحيح: صحيح الجامع الصغير: (١٥٧٨).

(٣) رواه الترمذى، وصححه صاحب صحيح الجامع الصغير: (٧٧٧٤).

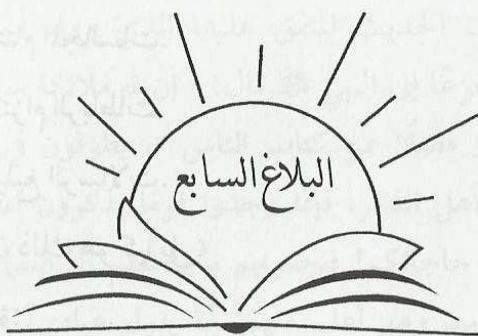
(٤) متفق عليه.

قُبُّ أوَّلَىٰ السَّمَعِ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وإنه والله سر حُسْنِ الأسوة، وجمالها في رسول الله، فقد قال ﷺ: «إني لم أبعث لعاناً وإنما بعثت رحمة» ^(١). ذلك خلق رسول الله، ذلك خلق القرآن، وهو قول الله تعالى: ﴿ فَيَمْرَأْحَمَةٌ مِّنَ اللَّهِ لِنَتَ أَهْمَمُ وَلَوْكَنَتْ قَطَا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا تَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكُمْ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَأَسْتَغْفِرُ لَهُمْ وَشَاؤْرُهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَرَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبه: ١٢٨]، ألا ما أحوج الناس اليوم عامة، والدعاة منهم خاصة إلى استيعاب هذا البلاغ القرآني العظيم، ألا وإن من أجهل الجهالات وأقبحها ما بدر من بعضهم - في زماننا هذا - من دفاع وتأصيل للخشونة في الدعوة، والتغطية في الدين! فتعلم من السنة أخي الداعية أخلاق النبوة؛ تكن بإذن الله من الراشدين!

ذلك خلقه ﷺ الجامع المانع؛ قاطع لكل عبث؛ ومن هنا جعلنا عنوان هذا البلاغ الضابط لكل ما قبله: (في اتباع السنة تزكية وتعلماً وتحلماً)؛ إذ النبي ﷺ إنما بعث معلماً ومزكياً، وكان كل ذلك منه على منهج الحلم والرأفة والرحمة والأنة، فصلى الله عليه وسلم من النبي حليم، رسول كريم!

(١) رواه مسلم.

تلك أصول البلاغ القرآني كتاباً وسنة، فما بقي لي ولد إلا تحقيق المناط، والدخول في الرباط، وذلك هو فقه الدين منزلاً على وفق الزمان والمكان، وهو بيان كيف العمل؟ وكيف الانطلاق؟ وكيف السير إلى الله؟ سلوكاً ودعوة، فرادى وجماعات، تلك أسئلة جمعنا جوابها في مفاتيح ثلاثة، هي خلاصة البلاغ السابع والأخير من هذه الرسالة.



في المفاتيح الثلاثة

لا فائدة لحكم ليس يتحقق له مناط مطلقاً في حياة الإنسان، وإنما جاء الدين ليكون حركة إنسانية في الزمان والمكان، لا نصوصاً تدل فقط، ولا قصصاً تحكي فحسب، وإنما الأمانة التي حملها الإنسان عملٌ: ﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرِي أَلَّهُ عَمَلُكُو وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَرَدُورُكُ إِلَى عَنْلِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَدَةِ فَيَتَسَكُّرُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبه: ١٠٥].

والإسلام لما يَنَّ بلاغاته للناس بين لهم - فيما بين لهم - وسائل الوصول إليها، وطرائق اكتساب صفاتها، فجعل لكل أصل عملاً، ولكل عمل باباً، ولكل باب مفتاحاً.

تبصرة:

ومدار باب الخروج إلى العمل على ثلاثة مفاتيح، هي أصول لما سواها، نَسْكُها في العبارات التالية:

- اغتنام المجالسات.
- والتزام الرباطات.
- وتبلیغ الرسالات.

وبیان ذلك هو كما یلی:

* تبصرة:

فاما المفتاح الأول فهو اغتنام المجالسات:

وهو أن تحرص على (مجالس القرآن) وهي خير أنواع (مجالس الذكر)، التي تضافت الأدلة من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ على أنها محبوبة عند الله، مذكورة في ملئه الأعلى، تشهدها الملائكة، وتنزل عليها السكينة، وتعشاها الرحمة، ويدركها الله في من عنده، وليس شيء أفيد منها في تربية الإنسان المسلم على الصلاح والفلاح، وهي من أهم الوسائل التربوية التي لا غيش فيها ولا غبار، من حيث استنادها إلى الأدلة المتوترة بالمعنى، عبر الأحاديث الوفيرة المستفيضة، نذكر منها الحديث المشهور، الذي رواه أبو هريرة مرفوعاً إلى النبي ﷺ، والذي فيه: « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم؛ إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفظتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده. ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه »^(١).

(١) رواه مسلم.

وكذلك الحديث المتفق عليه، الذي رواه أبو هريرة أيضاً، مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال: « إن الله ملائكة سياحين في الأرض، « فضلاً عن كتاب الناس »، يطوفون في الطرق، يتلمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله ت Nadوا: هلموا إلى حاجاتكم! فيحفونهم بأججتهم إلى السماء الدنيا، فيسألهم ربهم وهو أعلم منهم: ما يقول عبادي؟ فيقولون: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك. فيقول: هل رأوني؟ فيقولون: لا والله ما رأوك. فيقول: كيف لو رأوني؟ فيقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تعجیداً، وأكثر لك تسبیحاً. فيقول: فما يسألونی؟ فيقولون: يسألونك الجنة. فيقول: وهل رأوها؟ فيقولون: لا والله يا رب ما رأوها. فيقول: فكيف لو أنهم رأوها؟ فيقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً، وأشد لها طلباً، وأعظم فيها رغبة. قال: فمم يتغذون؟ فيقولون: من النار. فيقول الله: هل رأوها؟ فيقولون: لا والله يا رب ما رأوها. فيقول: فكيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فراراً، وأشد لها خفافة. فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم! فيقول ملك الملائكة: فيهم فلان، ليس منهم، إنما جاء لحاجة! فيقول: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم! »^(١) والأحاديث في هذا المعنى كثیر.

تبصرة: وتوسلاً إلى تحقيق مناط ذلك نسمى « مجالس

(١) متفق عليه.

ولكن لا تنس (مجالس القرآن)، فذلك منهجه النبي ﷺ في تلقين صاحبته صفات الصلاح، ومقومات الإصلاح. تعلم من القرآن مباشرة دعوة الخير: «يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ» [آل عمران: ١٠٤].

تبع منهجه القرآن كما عرضه القرآن: التلاوة، والتعلم والتعليم، والدراسة والتدارس، ثم التدبر؛ عسى أن تكون من المبصرين. فاجعل مجلسك القرآني على هذه الفقرات الأربع، المؤصلة في كتاب الله وسنة رسول الله. وبيانها كما يلي:

١- فأما التلاوة: فبركة وزكاة في نفسها، فقد ثبت الأجر - كما بيانه قبل - على كل حرف تتلوه من القرآن، فلا تنس هذا، والله يعجل أمر بالتلاء للقرآن في غير ما آية. قال سبحانه: «وَأَتَلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابٍ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلٌ لِكَلِمَتِهِ وَلَا يَجِدُ مِنْ دُونِهِ مُتَحَدًا» [الكهف: ٢٧]، وقال سبحانه: «إِنَّ الَّذِينَ يَتَلَوُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَنَاهُمْ سِرَّاً وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجْزِيَةً لَنْ تَبُوَرَ» [فاطر: ٢٩]، وقال: «لَيَسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَلَوُنَّ عَلَيْكُمُ اللَّهُ أَعْلَمُ أَتَلُ وَهُمْ يَسْجُدُونَ» [آل عمران: ١١٣]، وقال تعالى: «وَرَأَلِ الْقَزْمَانَ تَرْتِيلًا» [الزمآن: ٤]، ثم قال: «فَاقْرُئُوا مَا تَسْرَرَ مِنَ الْقُرْءَانِ» [الزلزال: ٢٠]. وفي الحديث الصحيح: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرؤه ويتعنت فيه، وهو عليه شاق؛ له أجران» ^(١).

(١) متفق عليه.

القرآن » مساهمة في تصحيح ما انحرفت إليه بعض الحركات الإسلامية، حيث تحولت مجالسهم التربوية، إلى اعتماد كتاب فلان، أو علان، من التأليف الفكرية البشرية؛ منهاجاً للدين والتدين. وهذا خطير كبير قد بناه من قبل ^(١)، إذ بسببه يصيب الدعوات ما يصيبها من أنانية، وذاتية، وشركة نفسية في كثير من الأحيان. إن التربية الدعوية لا يمكن أن تستقيم على التوحيد الاعتقادي والعملي والوجداني؛ إلا بالتعلق المصدري بكتاب الله وسنة رسول الله في المجال التربوي، بالنسبة للمربi والمربi سواء. فتدبر.. ثم أبصرا!

وقد تبين مما سبق أن عملنا يقوم على منهجه واضح وبسيط: الاعتصام بالقرآن آية آية؛ مصدرًا أول للتدرين، والدعوة إليه، والاعتصام بالشمائل المحمدية نموذجاً أعلى للتطبيق. فهو قسمان، وكلاهما يجب أن تترجمه (مجالس القرآن)، وبيان ذلك كما يلي:

تبصرة: القسم الأول: أسلوك نفسك وصاحبك في مجلس من (مجالس القرآن)، وسر من خلاها إلى الله. لا تهتم كثيراً - في هذا الشأن خاصة - بالتنظيمات والجماعات، فما نحن فيه أعم - من وجهه - بكثير مما هي فيه، وهم أمران لا يتعارضان.

(١) انظر التوحيد والوساطة في التربية الدعوية للكاتب، الجزء الأول، نشر وزارة الأوقاف القطرية ضمن سلسلة كتاب الأمة. العدد: (٤٧).

فاقرأ كما استطعت وتعلم؛ كي تتركي، فقد رأيت أن التلاوة بداء فعله **﴿يَتَلَوُ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ، وَيُرَكِّبُهُمْ وَيَعْلَمُهُمْ الْكِتَبُ وَالْحِكْمَةُ﴾** [آل عمران: ١٦٤]، فالللاوة نور في نفسها. إنها - لو أبصرتها حقاً - صلة مباشرة برب العالمين؛ ذكرها ومناجاة، إن العبد التالي لكتاب الله متكلم بكلام الله، وهذا وحده معنى عظيم في نفسه، فتدبر! وهو يمهد القلب ويهيء للخطوات التربوية التالية.

٢- وأما التعلم والتعليم: فهو لأحكامه كما ذكرنا، وهو يكون بتحصيل العلم للنفس وتلقينه للغير؛ وذلك لقول الله تعالى: **﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبِّيَّنِينَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَبَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرِسُونَ﴾** [آل عمران: ٧٩]. فقد قرئت **(تعلمون)** و(**تعْلَمُونَ**) فهي عملية مزدوجة، الجمع بين شقيها أولى: التعلم والتعليم، وأقل ذلك يا صاح أن تكون أحد هما: معلمًا أو متعلمًا. بيد أن العلم هاهنا إنها هو ما أفاد العمل. على قاعدة علماء مقاصد الشريعة: أن **(كل علم ليس تحته عمل فهو باطل)**، وعلى هذا يحمل قوله **﴿إِنَّ الدِّينَ مَلْعُونَ مَلْعُونَ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ وَمَا وَالَّهُ، وَعَالَمًا أَوْ مَتَعْلِمًا﴾**^(١)، وقوله عليه الصلاة والسلام: **«إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَعْنِي**

معنًّا ولا متعنًّا؛ ولكن بعثني معلمًا ميسرًا ^(١). أي: معلمًا أعمال الخير والصلاح للعالمين.

٣- وأما الدراسة والتدارس: فهو تبع وجوه المعانى والدلالات للمقاصد والغايات، من كل آية وسورة، ويجمع الثانية والثالثة - أعني: (التعلم والتدارس) ما ذكرنا من قوله تعالى: **﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبِّيَّنِينَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَبَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرِسُونَ﴾** [آل عمران: ٧٩]، ويجمع المراحل الثلاث كلها: (الللاوة والتعلم والتدارس) ما جاء عن أنس بن مالك قال: جاء ناس إلى النبي **ﷺ** فقالوا: ابعث معنا رجالاً يعلمنا القرآن والسنّة. فبعث إليهم سبعين رجلاً من الأنصار، يقال لهم القراء. فيهم خالي حرام. يقرؤون القرآن، ويتدارسون **بِاللِّيلِ يَتَعْلَمُونَ** .. الحديث ^(٢). فالتدارس هو أساس التعلم كما في هذا الحديث، إذ لا علم إلا به، فأنت تبحث عن وجوه المعانى وتتدارسها؛ لتعلم أحكامها ومقاصدتها، وذكر التدارس أيضًا في الحديث السالف الذكر، من قوله عليه الصلاة والسلام: «من سلك طريقًا يلتمس فيه علّمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم؛

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

(١) رواه الترمذى وابن ماجه بسند حسن كما في صحيح الجامع الصغير: (١٦٠٩).

إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله في من عنده، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه^(١).

٤ - وأما التدبر: فهو - كما سبق بيانه - أnek إذ تقرأ الآيات، وتدرس، وتتعلم؛ تنظر إلى مآلاتها، وعواقبها في النفس وفي المجتمع؛ فتبصر حقائقها الإيمانية إبصاراً؛ فتكتسب بذلك من الصفات، ما يعمّر قلبك بالإيمان، ويثبت قدمك في طريق المعرفة الربانية، ونحو ذلك من المعاني، مما فصلناه قبل في محله، فلا حاجة لتكراره.

ذلك كله هو أساس التزكية، ومقاييس التصفية، ومنهاج التربية، وسلم العروج إلى رضى الرحمن، فاقرأ القرآن، وتدرس، وتتعلم، وتدبر ثم أبصر! حتى يأتيك اليقين. فاصبر على هذا المنهج؛ فإن كل آية تسلّمك إلى الأخرى، وتفتح لك باب أسرارها وأنوارها، فتتبع مسالك النور حتى تصل، إن شاء الله.

ذلك هو الاعتصام بكتاب الله، وأما الاعتصام بالشّرائع الحمدية نموذجاً أعلى للتطبيق؛ فهو:

تبصر: القسم الثاني: وهو أن تتبع معلم سير رسول الله ﷺ في كل ذلك، وهي مبثوثة في كل كتب السنة وعلومها، إلا أن أجمع علوم السنة الموضوعة لبيان هذا المنهج؛ هو

(علم الشّرائع الحمدية)؛ وهو علم يبحث في صفات رسول الله ﷺ الخلقية والخلقية، وكيفية سيرته مع ربه، وسيرته في نفسه، وفي أهله، وفي أصحابه والناس أجمعين. وإن ذلك هو القرآن كله مطبقاً، والإسلام كله حيّاً متحرّكاً. فادرس من الكتب في ذلك ما شئت ولا حرج، أو اجمع نصوصه من حيثما شئت ولا حرج، وإنما الشرط أن تتحرّى الصحة في الخبر، ويكمّل بذلك ما أردناه من معنى: (مجالس القرآن)، التي كانت هي مجالس الصحابة والتّابعين رضوان الله عليهم أجمعين، وذلك هو المفتاح الأول.

تبصرة: وأما المفتاح الثاني فهو التزام الرباطات:

وإنما القصد بالرباطات بيوت الله حيثما كانت: ﴿فِي بُيُوتِ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيَدْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ، يُسَيِّحُ لَهُ، فِيهَا بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ﴾^(٢) يَجَالُ لَا تُنْهِمُهُ تَجَنَّبُهُ وَلَا يَعْوِزُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الْصَّلَاةِ وَإِيَّاهُ الْزَّكُوْنَ يَخَافُونَ يَوْمًا نَنْقَلُبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَرُ﴾^(٣) لِيَجْزِمُهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٦ - ٣٨]، ذلك ما سماه رسول الله ﷺ، (الرباط)، في الحديث الذي رواه عنه أبو هريرة رض، قال رض : «ألا أدلّكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟» قالوا: بَلَى يا رسول الله. قال: «إسْبَاغُ الْوَضْوَءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخَطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانتَظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدِ الصَّلَاةِ،

(١) رواه مسلم.

فَذَلِكُمُ الْرِبَاطُ! فَذَلِكُمُ الْرِبَاطُ! فَذَلِكُمُ الْرِبَاطُ! »^(١) فَتَدَبَّرْ.. ثُمَّ أَبْصَرْ!

وَإِنَّمَا (الرِبَاطَ) لَهُ دَلَالَةٌ جَهَادِيَّةٌ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَذَلِكَ هُوَ الْمَفْهُومُ مِنْ فَعْلِ (رَابِطَ) الْمَأْمُورُ بِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَائِيَهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَأَبِطُوا وَأَنْقُوا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]؛ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: (رَابِطُوا) مَعْنَاهُ - كَمَا فِي سَائِرِ التَّفَاسِيرِ - صَابِرُوا عَلَى مَلَازِمَةٍ ثُغُورِ الْجَهَادِ؛ لِمَرَاقِبَةِ الْعَدُوِّ، وَالْتَّصْدِي لِغَارَاتِهِ، وَحِرَاسَةِ الْمُسْلِمِينَ.

وَلَذِكَرْ فَقَدْ أَوْرَدَ الْإِمَامُ الْبَخَارِيُّ هَذِهِ الْآيَةِ فِي كِتَابِ الْجَهَادِ وَالسِّيرِ مِنْ صَحِيحِهِ، فِي تَرْجِمَةِ (بَابِ فَضْلِ رِبَاطِ) يَوْمِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَتَائِيَهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا﴾ الْآيَةُ. وَأَوْرَدَ فِيهِ الْحَدِيثُ الْأَخْرَجُهُ مُسْلِمٌ أَيْضًا؛ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رض أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ص قَالَ: «رِبَاطٌ يَوْمٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَمَوْضِعٌ سُوْطٌ أَحَدُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَالرُّوْحَةُ يَرْوَحُهَا الْعَبْدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ الْغَدُوَّةُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا»^(٢).

فِي هَذَا السِّيَاقِ الْجَهَادِيِّ إِذْ اسْتَعْمَلَ النَّبِيُّ ص لِفَظَ (رِبَاطَ)؛ لِلَّدَلَالَةِ عَلَى التَّزَامِ الْمَسَاجِدِ، وَالْأَرْتَبَاطِ بِنَدَائِهَا؛ فَقَالَ: «فَذَلِكُمُ الْرِبَاطُ! فَذَلِكُمُ الْرِبَاطُ! فَذَلِكُمُ الْرِبَاطُ!»

(١) رواه مالك في موطنه، ومسلم في صحيحه.

(٢) متفق عليه.

هكذا ثلث مرات، كما خرجناه قبل، وفي ذلك ما فيه من الدلالة العظيمة على امتداد (التربية الجهادية) من المسجد إلى الشغر، وفيه دلالة واضحة على أن ربط القلب ببغور العدو؛ قبل ربطه ببغور المساجد؛ إنما هو قلب لميزان الجهاد ومفهومه في الإسلام، وتفریغ له من محتواه، فمن انهزم عن حصنون الجوامع لا يمكنه أن يتصرّ بحصون المدافع، تلك سنة الله التي سنها في عباده (المبعوثين) لتجديد الدين عبر الزمان: «فَلَمَّا تَحَدَّ لِسْتَ اللَّهُ تَبَدِّي لَّا وَلَمْ تَحَدَّ لِسْتَ اللَّهُ تَحْوِي لَّا» [فاطر: ٤٣] فَتَدَبَّرْ.. ثُمَّ أَبْصَرْ!

وَإِنَّمَا يَقْاسِي مَدْيَ نِجَاحِ تَرْبِيَتِكَ فِي الْمَجَالِسَاتِ بِمَدْيِ التَّزَامِكَ بِرِبَاطِ الْصَّلَوَاتِ، وَمِنْ أَخْطَأَهُمْ هَذَا الْمِيزَانُ فِي التَّقْوِيمِ التَّرْبَوِيِّ الدَّعْوِيِّ فَقَدْ أَخْطَأَ الْحَقَّ كُلَّهُ! وَنَصْوَصُ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ فِي ذَلِكَ وَاضْحَى جَدًّا. بَلْ هِيَ بِمَجْمُوعِهَا دَالَّةٌ عَلَى الْقُطْعِ مَبْنَىً وَمَعْنَىً، وَقَدْ سَبَقَتْ فِي ذَلِكَ آيَةُ سُورَةِ النُّورِ، وَحَدِيثِ الرِبَاطِ، لَكُنَا مَعَ ذَلِكَ نُورِدُ بَعْضَ النَّصْوَصِ الْأُخْرَى، الدَّالَّةُ عَلَى تَهَافُتِ مَنْ شَرَدَ عَنِ الْمَسَاجِدِ وَجَمَاعَتِهَا، وَإِنْ كَانَ مِنَ الْمُصْلِينَ، وَفِي جَهَنَّمِ وَادِّ لَبَعْضِ الْمُصْلِينَ أَيْضًا! نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْهَا؛ فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُسَعُودٍ رض قَالَ: «مِنْ سَرِّهِ أَنْ يَلْقَى اللَّهُ غَدَّاً مُسْلِمًا فَلِيَحَافِظْ عَلَى هُؤُلَاءِ الْصَّلَوَاتِ حِيثُ يَنْادِي بِهِنْ، فَإِنَّ اللَّهَ شَرَعَ لَنِّيَكُمْ سُنَّةَ الْمَهْدِيِّ وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَّةِ الْمَهْدِيِّ. وَلَوْ أَنْكُمْ صَلَيْتُمْ فِي بَيْوْتِكُمْ

كما يصلي هذا المخالف في بيته لتركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم، وما من رجلٍ يتظاهر فيحسن الطهور ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد؛ إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة، ويرفعه بها درجة، ويحط عنها بها سيئة، ولقد رأينا وما يخالف عنها إلا منافق، معلوم النفاق، ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف. ^(١) . فتدبر.. ثم أبصر !

فيما عجباً لنابتة من الإسلاميين - زعموا - برعوا في تنميق العبارات، والخطب السيارات؛ وحظهم من الصلاة ضئيل ! وخطوهم إلى مساجدتها قليل ! فإن اضطروا إلى ذلك فهو خطو تغيل ! قد كاد ينطبق عليهم قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُلَّمَا يُرَاوِنَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَيْلًا ﴾ ^(٢) مُدَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَّا هَوْلَاءَ وَلَا إِلَّا هَوْلَاءَ وَمَن يُضْلِلَ اللَّهُ فَلَنْ يَهْدِيَهُ سَيِّلًا ﴾ [النساء: ١٤٢: ١٤٣].

فأنى يرجى للأمة صلاح على أيديهم؟ كيف وقد سبق السابقوين، المشاؤون بنور الله في الظلم، إلى المرابطة كل فجر بالصف الأول؟ وبقيت فلول المقلين بتبليس إبليس تغط في دفء الأحلام، وخيالات (التغيير الحضاري) ! وحادي الدعوة إلى الله ينادي حزيناً:

مَا لِلْجِمَالِ مَشِيهَا وَئِيدَا
أَجَنْدَلًا يَحْمِلُنَّ أَمْ حَدِيدًا؟

فانظر ما أشد قول النبي ﷺ في المخالفين عن جماعات الجماع، حيث قال ﷺ: « أُنْقَلَ الصَّلَاةُ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ وَصَلَاةُ الْفَجْرِ ! وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهَا لَأَتُوهُمَا وَلَوْ حِبَّوْا ! وَلَقَدْ هَمَتْ أَنْ أَمَرَ بِالصَّلَاةِ فَتَقَامَ، ثُمَّ أَمَرَ رَجُلًا فِي صَلَبٍ بِالنَّاسِ، ثُمَّ أَنْطَلَقَ مَعِي بِرِجَالٍ مَعْهُمْ حَزْمًا مِنْ حَطَبٍ، إِلَى قَوْمٍ لَا يَشْهَدُونَ الصَّلَاةَ؛ فَأَحْرَقَ عَلَيْهِمْ بَيْوَتَهُمْ بِالنَّارِ ! » ^(١) . وَرَوَى عَنْهُ أَيْضًا بَصِيَغَةً أُخْرَى صَحِيحَةً؛ قَالَ ﷺ: « وَالَّذِي نَفْسِي بِيدهِ لَقَدْ هَمَتْ أَنْ أَمَرَ بِحَطَبٍ فَيَحْطُبُ، ثُمَّ أَمَرَ بِالصَّلَاةِ لِيُؤْذَنَ لَهَا، ثُمَّ أَمَرَ رَجُلًا فِي ظَيْمَ النَّاسِ، ثُمَّ أَخَالَفَ إِلَى رِجَالٍ؛ فَأَحْرَقَ عَلَيْهِمْ بَيْوَتَهُمْ ! وَالَّذِي نَفْسِي بِيدهِ ! لَوْ يَعْلَمُ أَحَدُهُمْ أَنَّهُ يَجِدُ عَرَقًا سَمِينًا، أَوْ مَرْمَاتِينَ حَسْتَيْنَ؛ لَشَهَدَ الْعِشَاءَ ! » ^(٢) .

رباط المسجد هو المدرسة الأساس للدعوة الإسلامية، منذ عهد رسول الله ﷺ؛ إلى عهد كل من سار على سنته في تجديد الدين، ذلك المنهج الذي إن فاتك - يا عبدُ - فاتك الخير كله! وتلك دولة (المرابطين) في تاريخ المغرب الأقصى (٤٣٠ هـ إلى ٤٥٤ هـ)، إنما قامت يوم قامت على منهج

(١) متفق عليه.

(٢) رواه البخاري ومالك في موطنه.

تكوين الرباطات؛ انطلاقاً من أول رباط أنشئوه بإحدى جزر المحيط الأطلسي بالجنوب المغربي، قرب شنقيط. فمن هنالك شرع داعييهم الأول عبد الله بن ياسين - وكان من المصريين - في تربية الناس على شيء واحد لا ثاني له: الصلاة! وكانت له عقوبة تعزيرية عجيبة لمن تأخر عن الجماعة بالرباط، إذ كان يجلد المتأخر بكل ركعة عشر جلدات! وهم راضون بذلك مقبلون عليه باختيارهم! فما كان له أن يلزم الناس بالمرابطة معه في رباطه التربوي قبل التمكين، حتى إذا بدا له من صلاحهم ما جعلهم - في نظره - أهلاً لبناء الإسلام، ونشره بين الناس؛ خرج من رباطه؛ يفتح بهم المدن والقرى، وينشئ لكل بلدة فتحها مسجداً، يجعله لأهلها رباطاً للتربية والتعليم! استصحاباً للمنهج التربوي النبوي، الذي به ضمان الاستمرار على النصر والتمكين.

وبذلك مكن الله للإسلام في المغرب إلى الأبد، ذلك أنه رغم ما كان من دولة الأدارسة قبل المرابطين؛ فإن الإسلام لم يتجرد حقيقة في كل القبائل الأمازيغية، إذ يتحدث المؤرخون عن بقاء الوثنية، ديناً مستمراً في كثير من الجبال والصحراء! ومن كانوا على الإسلام كانوا على انحراف شديد، وقد وجد عبد الله بن ياسين مسلمي قبائل الصحراء يتزوجون أكثر من أربع نسوة، فجعل الله من دولة المرابطين

التمكين الحقيقى للإسلام في البلاد المغاربية مطلقاً، حتى إذا زالت دولتهم - كما تزول الدول - بقى الإسلام متداً، متجدراً بال المغرب، أصله ثابت وفرعه في السماء، إلى يوم القيمة إن شاء الله.

فتدرك.. ثم أبصر!

تبصرة: (الالتزام الرباط) إذن؛ هو تمام صلاح العبد وتصديقه، وإن (جلوساً) للذكر والتدارس، دون التزام الأوقات بالرباطات؛ هو أشبه ما يكون بعملية ملء الإناء المتقوب؛ لا يكاد يمتلى حتى يكون من الفارغين! فانظر لك أصحاباً من حيك وناديك؛ ثم اجعل لك - معهم - من مسجدكم الجامع رباطاً؛ تكن من الصالحين، ومن أهلبعثة المجددين، ذلك هو المفتاح الثاني، فجرب تر! وتدبر.. ثم أبصر!

تبصرة: وأما أنتِ أيتها الأخت المؤمنة، فلا نلزمك بما لم يلزمك الله به، وقد كفاك رسول الله ﷺ رباط المساجد. وإنما فلكك السيارات هو هذه الصلوات بمنازل الأوقات، بيد أنّا محدثوك عن رباطك الخاص، ألا وهو جلببلك الشرعي. ذلك هو رباطك الذي فرضه الله عليك فرضاً، إذ أنزل فيه قرآنًا يتلى إلى يوم القيمة: ﴿يَتَأَبَّهَا الَّتِي قُلْ لَاَرْزُقَنِكَ وَبَيَانِكَ وَسَاءَ الْمُؤْمِنَيْنَ يَدِينِكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَّيْهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفَ فَلَا يُؤْذِنُ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوراً رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩].

فجلبابك الضافي، الساتر الوفي، هو عنوان تقواك وورعلك، ورایة انتئاك لأمتك، به تعرفين من دون العاريات، فلا يصل إليك الأذى بإذن الله. ذلك منطق الآية العظيمة، فتدبري..! «ذلک أدقّ أَنْ يُعرَفَ فَلَا يُؤْذَنَ» [الأحزاب: ٥٩]؛ أي أنه تمييز لك، ورفع وتكريم، وتزنيه أن تستبهي على الساقطين بالساقطات! خاصة في زماننا هذا، حيث صار جسد المرأة سلعة معروضة في سوق العولمة الدولي، وإنما (العولمة) هي حركة تهويد العالم، حركة صارت المرأة فيها جسدًا بلا روح، جسدًا للاستهلاك الجنسي الساقط، ملء شوارع العالم، وتلفزيوناته.

أيتها المسلمة! إنك مسلمة، فستري! ادخلِي رباط الصلاح والفلاح، واجعلي عفافك عنوان هويتك! كذلك يقول دينك العظيم، فقولي ملء العالم كله: (أنا محجة إذن أنا موجودة!) وإلا فعلى دينك السلام!

قال جل وعلا في تفصيل أحكام ذلك: «وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضِضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبَدِّلْنَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا أَظَهَرَ مِنْهَا وَلَيَضْرِبَنَّ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُنُوبِهِنَّ وَلَا يُبَدِّلْنَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِعُولَتِهِنَّ أَوْ إِبَاءِهِنَّ أَوْ إِبَاءَهُنَّ بِعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَهُنَّ أَوْ أَبْنَاءَهُنَّ بِعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْرَيْهُنَّ أَوْ بَنِي إِخْرَيْهُنَّ أَوْ بَنِيَّهُنَّ أَوْ فِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانَهُنَّ أَوْ الْتَّيْعِينَ. غَيْرُ أُولَى الْأَرْبَةِ مِنَ الْرِّجَالِ أَوِ الْطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهِرُوا عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبَنَّ

يَأْتِيْلُهُنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَمْمَةُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» [النور: ٣١].

هذا حكم الله، وهو حكم من الرتبة التشريعية الأولى، قوته الإلزامية تأبى التأويلاً الفاسدة، والتحريفات المغرضة؛ ولذلك أذنر النبي ﷺ العاريات إنذاراً رهيباً، فقال ﷺ: «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرْهُمَا؛ قَوْمٌ مَعْهُمْ سِيَاطُ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ، مُبِلَّاتٌ مَائِلَاتٌ، رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُحْتِ الْمَلِئَةِ، لَا يَدْخُلُنَّ الْجَنَّةَ، وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنْ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا»^(١). ذلك الحق: «فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الْأَضَلَلُ» [يونس: ٢٢].

قلت: ذلك حكم الله، لم رضيت بالله ربّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبّاً ورسولاً، فتدبري - بنيتي - هذه الآية العظيمة ثم أبصري! قال الله تعالى يخاطب رسوله ﷺ: «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَحْدُوْا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا» [النساء: ٦٥]، أقرئيها ثم أقرئيها...! وتدبري، ثم أبصري!

اليوم تدور حرب حضارية كبرى، هذا قدر زماننا، فإذا نكون فيه - كما يجب أن نكون - أو لا نكون! العري هزيمة! والعفاف خطوة كبرى في طريق الانتصار،

(١) رواه مسلم.

ومن هنا جاء فرض الحجاب في القرآن، وفي القرآن نفسه قبل سواه، وما نزل القرآن بحكم إلا كان أمراً جليلاً، وعزمًا مبيناً، وكان هتكه جرمًا عظيمًا. فالستر يا بنتي - لو تبصرين - جمال وجلال.

لباسك الشرعي أيتها الأخت المؤمنة هو - مع كل ما ذكر بهذه الرسالة مما سوى المسجد - ميزان وفائق العهد مع الله، ومدى التزامك ب夷اقه. فتكاليف الدين ليست خاصة بالرجال، بل هي عامة في النساء والرجال على السواء، كل ما عليهم عليك، وكل ما لهم لك، إلا ما استثناه الدليل، قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ مَنْ كُمْ مَنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْتَ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، إن الدين عهد، وإن الإسلام بيعة، تعلقت بأعناق المسلمين من الرجال والنساء جميعاً، فإما وفاء، وإما نقضًا والعياذ بالله! ويوم الحساب الكوني قريب! ومن هنا كان لباسك الشرعي - بنتي - يشكل جزءاً جوهرياً من (بيعة النساء)، كما جاء مفصلاً في حديث عبد الله ابن عمرو قال: جاءت أميمة بنت رقيقة إلى رسول الله ﷺ تبأيعه على الإسلام فقال ﷺ: «أبأيتك على أن لا تشركي بالله شيئاً، ولا تسرقي، ولا تزني، ولا تقتل ولدك، ولا تأتي بيها تفتريه بين يديك ورجليك، ولا تنوحى، ولا تبرجي تبرج الجاهلية الأولى!»^(١)، ذلك

عهد الله، فهل وَفَّيْتَ؟ وذلك ميثاقه الذي واثقك به فهل صدقت؟

لباسك رباطك ببنيتي، فنجاح بلاغات القرآن على يديك التزاماً ودعوة؛ إنها هو به ومن خلاله، فانطلقي سيراً إلى الله طوعاً! واعتصمي ببصيرة الصبر العظيمة، وهي قول الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

فلباسك الشرعي، أي: جلبك الفضفاض، الذي لا يصف ولا يشف، إنها هو راية دعوة وجهاد لو تعلمين! إنه ناطق بكثير من المعانى، إنه يعلن للعالمين أن المرأة المسلمة ليست مجرد جسد للتجارة، في أسواق السياسة والإعلام! إنها نفس إنسانية تسبح في فلك الأمانة الكونية التي حملها الإنسان، تؤدي وظيفتها الحقيقة، عارضة في الأرض على المنهج الرباني، والتوكيل الرسالي، تحمل بلاغات القرآن، في طريقها إلى الله، سائرة على أثر الأنبياء والصديقين والشهداء، من القرآن إلى العمran.

تبصرة: وأما المفتاح الثالث فهو تبليغ الرسالات: وتبصرة هذا المفتاح هو: جواب (كيف البلاغ؟) أما تأصيله فقد سبق تقريره بقواعد، في تبصرة البلاغ الخامس، من بلاغات الرسالة القرآنية، وذلك ما جعلناه (في الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).

(١) رواه أحمد والطبرى، وقال الهيثمى في مجمع الزوائد: رجاله ثقات.

تبصرة: كيف البلاغ؟ ليس البلاغ اليوم في المسلمين بلاغ (خبر) هذا الدين، فذلك أمر قام به الأولون، وما بقي اليوم صقع في الأرض لم تبلغه قصة الرسالة الإسلامية، على الجملة، ثم إنما المقصود بمسرورنا هذا هو دار الإسلام، هذا العالم الإسلامي الذي لأن فيه التدين، وضعف فيه التمسك بالكتاب، مع أنه يتلوه - أو يتلى عليه - كل حين.

إنما المسلمون اليوم في حاجة إلى (إيصال)، إيصال الحقائق القرآنية التي تتل علىهم صباح مساء، وهم عنها عمون، على نحو ما وصف الله سبحانه في قوله: ﴿وَتَرَهُمْ يَنْظَرُونَ إِلَيْكُمْ وَهُمْ لَا يُبَصِّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨]، وقوله سبحانه: ﴿وَكَأَيْنَ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمْرُرُتْ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]. فالبلاغ الذي نحن في حاجة إليه إنما هو بلاغ (التبصير)، لا بلاغ التخدير.

وأما مادته فما ذكرناه من أصول الرسالة القرآنية، وبلاغات القرآن: من اكتشاف القرآن العظيم، والتعرف إلى الله والتعريف به، واكتشاف الحياة الآخرة، واكتشاف الصلوات وحفظ الأوقات، وحقيقة الدعوة إلى الخير، وحكمة اتباع السنة؛ تزكيةً وتعلماً وتحلماً، ومفاتيح ذلك كله في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

وأما وسائله فأصول وفروع، أما الفروع فلا تنحصر،

وإنما الشرط فيها عدم نقض أصولها، ومعلوم في قواعد الأصول أن (كل فرع عاد على أصله بالإبطال فهو باطل).

وأما الأصول فأحسب أن مدارها على أمرين: سقي وتجذير. وقد سبق لنا بيانهما في ورقتنا الدعوية: (نظيرية السقي المروحي والتجذير المتعدد الإنبات)^(١)؛ والمقصود بالسقي المروحي: استعارة حركة آلة السقي المروحة في المجال الزراعي، التي ترش الماء على المزروعات بصورة شمولية، ترش على كل ما حولها من جميع جهاتها، في حركة دائيرية دائمة، وذلك هو حال المؤمن في حركته الدعوية، يدور مع كلمة الخير حيث دارت، يسقي بها كل من لقيه في طريقه، وكل من اتصل به، في أي ظرف من الظروف، (يَصَرُّ) الناس بحقائقها واعظاً وخطيباً ومتحدثاً ومحاوراً ومناقشاً، ومنظراً، وكاتباً، وقائماً، وقاعداً، وراجلاً، وراكباً، وفي المسجد وفي السوق وفي المكتب وفي الجامعة وفي المدرسة وفي المستشفى وفي الشارع ... إلخ، فلا يزال مستنيراً بقاعدة القرآن: ﴿وَمَنْ أَحْسَنْ فَوْلَادَ مِمَّنْ كَعَ إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَنْلِحَا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٢٣]، ذلك سقي مروحي.

(١) تلك كانت ورقة دعوية سبق لنا إعدادها بعنوان: (نظيرية السقي المروحي والتجذير العشري)، طلياً للعدد: «عشرة» في تنظيم جلسات التربية لمفاسد حركية، ثم عدلنا عنه لما تبين لنا من ضرورة تأمين الدعوة من جهة، ومن أن حصر العدد في عشرة فيه نوع من التحكم غير المشروع؛ فعبرنا بـ (التجذير المتعدد الإنبات) بطلاق، وإنما الموفق من وفقه الله.

وأما التجذير فهو غرس جذور المقبلين على الخطاب القرآني وبصائره، المستزيدين من حقائقه. وإنما التجذير المفيد هاهنا هو (التجذير المتعدد الإنبات)، ذلك أن جذور النبات والشجر على نوعين: نوع مقتصر في وظيفته على نبتة واحدة، أو شجرة واحدة؛ إمداداً عمودياً بالماء والغذاء، ونوع ثان له طبيعة متکاثرة متناسلة، بحيث تتعدى وظيفته إمداد شجرته أو نبتته؛ إلى إنبات شجرة أخرى جديدة، أو إخراج نبتة أخرى جديدة، بصورة أفقية، تتكاثر شجراً، أو نباتاً متناهراً هنا وهناك، فمثال ذلك في الشجر: القصب والصفصاف ونحوهما، ومثاله في النبات: النجم البري، وكذلك النجم الرومي الذي تزين به اليوم الحدائق العامة. فمثل هذه الأشجار والنباتات بمجرد ما تضع لها في التربة جذراً واحداً وتسقيه بماء حتى يقوم بوظيفتين: الأولى أنه ينبت نبتته الخضراء، والثانية: أنه يسرح تحت الأرض ليفتقد التربة في مكان آخر، بنبتة أخرى جديدة. ويتكاثر ذلك بصورة متواالية؛ حتى يخضر المكان كله، ويفيض بالنبات، أو الشجر، كذلك المؤمنون المستجيبون لبلاغ الرسالة القرآنية، فإنهم تمد لهم جذور التربية في تربة الرباطات، ويسقون بعد ذلك بماء المجالسات.

ويمكن أن يربطوا بهذه قبل تلك، لا حرج عليك بأيما بدأت، حسبما تيسر لك، لكن بشرط أن يؤول الغرس في

النهاية إلى تربة المسجد، إذ يجب أن تعلم أن رباط المسجد هو غاية الوسائل ووسيلة الغايات، وأن المجالس إنما هي سقاوه. ولطالما تباهت التنظيمات والحركات بكثرة خلاياها وأعدادها، وليس لها من رباط المسجد نصيب، فلا يمضي من الزمن إلا قليل حتى ترتد تلك الجموع على أدبارها، وتساقط لقى مهملاً بين المقاهي والملاهي!

المسجد هو أساس عَدَكَ وإعدادك، فاغرس برياضه (رُبُطاً)، واجعل منها نسل دعوتك، ثم اجعل جلسة القرآن لها مدرسة، تغذيها وتنميها، وابن على ذلك في منهج التبصير بحقائق هذا الدين؛ بعثاً وتجديداً! فبذلك - وبذلك فقط - تبني الصفو، لمن رام الدعوة إلى الله على منهج رسول الله ﷺ.

السقي والتتجذير مصطلحان زراعيان استعراهما للتمثيل والتقريب، وإنما ذلك ما عبرنا عنه من قبل في كتابنا (التوحيد والوساطة في التربية الدعوية)^(١) بـ(الأرقمية) وـ(المنبرية)؛ فـ(الأرقمية)؛ نسبة إلى مجالس الرسول ﷺ وصحابته، بدار الأرق بن أبي الأرق، قبل الهجرة، (والمنبرية)؛ نسبة إلى منهجه ﷺ الخطابي، الذي عرف من على منبر المدينة، والحقيقة أن المنبرية والأرقمية منهج متكملاً، لا يستغني أحدهما عن الآخر؛ فالمنبرية هو ما بدأ به الرسول ﷺ أول الأمر، لما صعد

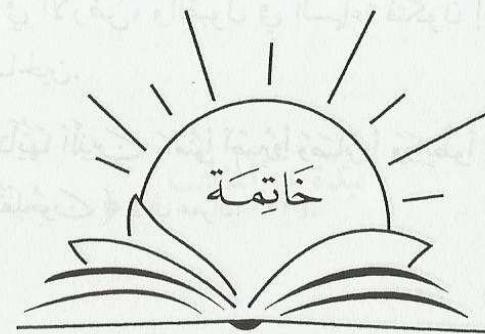
(١) انظر التوحيد والوساطة في التربية الدعوية للكاتب، الجزء الأول، نشر وزارة الأوقاف القطرية ضمن سلسلة كتاب الأمة. العدد: (٤٧).

الصفا وخطب منذراً. فمن حديث ابن عباس رضي الله عنهم قال: «لما نزلت **﴿وَأَنَّرَ رَبِيعَتَكَ الْأَقْرَبَينَ﴾** [الشعراء: ٢١٤] خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا، فهتف: يا صبحاً! فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: «أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكتم مصدقتي؟» قالوا: ما جربنا عليك كذباً. قال: «فإن نذير لكم بين يدي عذاب شديد!» قال أبو هب: تبّاً لك. ما جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قام فنزلت: **﴿تَبَّأَ يَدَآءِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾** [المد: ١] ^(١)، ثم استمر هذا المنهج في المسلمين بعد الهجرة، إذ صار منبره ﷺ بمسجد المدينة رمزاً لمنهج السقي المروحي، داخل المسجد وخارجه.

وأما الأرقمية فقد كانت في المرحلة المكية تحضن كل من أجاب الخطاب المنبرى، فتجذر بترية المجالس بدار الأرقم، أو بشعاب مكة وجبالها، فتلك المجالس هي التي آلت بعد الهجرة إلى المسجد؛ مجالس للذكر وصلوات، ذلك المنهج النبوى الحق إن شاء الله، وإنما الموفق من وفقه الله.

* * *

وختامنا فاتحة خير لي ولك إن شاء الله، نفتح بها سبيل الخروج بهذه البلاغات - عبر باب العمل - إلى حيز التطبيق؛ لبناء النفس والمجتمع؛ في المفاتيح الثلاثة: (اغتنام المجالس، والتزام الرباطات، وتبيّن الرسائلات)، فمن جمعها جمع الخير كله، فتلك هي خلاصة البلاغات القرآنية، وذلك هو المنهج التطبيقي البسيط، والفعال؛ للوصول إلى مقاصد البلاغ الرباني، وإيصالها إلى كل إنسان؛ معرفة وذوقاً، وإبصاراً وتبصيراً، فاهتم بالقرآن والسنّة، بالمنهج الذي ذكرنا مؤصلاً بأصوله وقواعدـه، اهتم بتنزيل أحكامـها على نفسك وعلى أهلك، ثم على من حوالـيك من الناس، واسعـ من أقصـى المدينة إلى أقصـاها؛ لتذكـير المسلمين وغيرـهم بـبلاغـات القرآن، أعني الأصول الكـبرـى للـدين، اعتقادـاً وعملـاً، كما يـبـنـا وـشـرـحـنا، اـطـرـقـ أبوـابـ القـلـوبـ! وـخـاطـبـ فـطـرـتهاـ؛ تـجـدـ الأـسـاعـ مـصـغـيـةـ، وـالـأـفـئـدـ وـاعـيـةـ؛ عـسـىـ أنـ يـجـعـلـ اللهـ لـكـ



القبول في الأرض، والقبول في السماء؛ فتكون إن شاء الله من الصالحين.

﴿يَتَأَبَّلُهَا الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَأَيْطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وكتب راجي عفوريه وغفرانه، الفقير إلى رحمته ورضوانه:

فريد بن الحسن الأنباري

الخزرجي السجلماسي، غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وصلى الله

على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

وكان الفراغ من تبييهه وتصححه - بمكتبة الزيتون،

من حواضر المغرب الأقصى - فجر يوم الأربعاء

(٩ ربيع الثاني: ١٤٢٣ هـ -

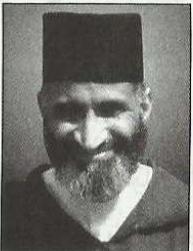
٢٠٠٢/٦/١٩).

رقم الإيداع

٢٠٠٩/٩٧٩٢

التقييم الدولي I.S.B.N

977-342-741-2



فريد الأنباري.

- ولد بإقليم الرشيدية جنوب شرقي المغرب سنة: (١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م).

- حاصل على دكتوراه الدولة في

الدراسات الإسلامية، تخصص أصول الفقه، من جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب المحمدية، المغرب.

- حاصل على دبلوم الدراسات العليا « دكتوراه السلك الثالث » في الدراسات الإسلامية، تخصص أصول الفقه، من جامعة محمد الخامس، كلية الآداب - الرباط.

- حاصل على دبلوم الدراسات الجامعية العليا (نظام تكوين المكونين) « الماجستير » في الدراسات الإسلامية، تخصص أصول الفقه، من جامعة محمد الخامس، كلية الآداب - الرباط.

- حاصل على الإجازة في الدراسات الإسلامية من جامعة السلطان محمد بن عبد الله، كلية الآداب - فاس / المغرب.

- صدر له من الدراسات العلمية:

١- التوحيد والوساطة في التربية الدعوية «الجزء الأول والثاني» نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، صدر ضمن سلسلة كتاب الأمة القطرية بالعدددين: (٤٧ و٤٨). السنة (١٤١٦هـ/١٩٩٥م).

٢- أبجديات البحث في العلوم الشرعية: محاولة في التأصيل المنهجي، صدر ضمن منشورات الفرقان، الدار البيضاء: (١٩٩٧م).

٣- قناديل الصلاة «كتاب في المقاصد الجمالية للصلاحة»، دار السلام، بالقاهرة: (٢٠٠٩م).

٤- المصطلح الأصولي عند الشاطبي (أطروحة دكتوراه)، نشر المعهد العالمي للفكر الإسلامي بالاشتراك مع معهد الدراسات المصطلحية بفاس، مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء، ط. الأولى: (١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م).

٥- الفجور السياسي والحركة الإسلامية بالمغرب، دراسة في التدافع الاجتماعي، منشورات الفرقان، الدار البيضاء، ط. الأولى: (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).

٦- سيماء المرأة في الإسلام بين النفس والصورة (منشورات ألوان مغربية. الطبعة الأولى، الرباط - طوب بريس: ٢٠٠٣م).

٧- ميثاق العهد في مسالك التعرف إلى الله، مطبعة أنفوبرانت فاس. ط. الأولى: (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

٨- مفاتح النور، دراسة للمصطلحات المفتاحية لكليات رسائل النور لبديع الزمان النورسي، نشر مركز النور للدراسات والبحوث بإستنبول بالاشتراك مع معهد الدراسات المصطلحية بفاس، مطبعة نيسيل بإستنبول، ط. أولى: (٢٠٠٤م).

٩- مجالس القرآن: مدارسات في رسالات الهدى المنهاجي للقرآن الكريم من التلقى إلى البلاغ، دار السلام، بالقاهرة: (٢٠٠٩م).

١٠- جمالية الدين: معارج القلب إلى حياة الروح، دار السلام، بالقاهرة: (٢٠٠٩م).

١١- مفهوم العالمية، دار السلام، بالقاهرة: (٢٠٠٩م).

١٢- الأخطاء الستة للحركة الإسلامية بالمغرب، مطبعة الكلمة، مكناس / المغرب، ط. الأولى: (٢٠٠٧م).

١٣- الفطرية بعثة التجديد المقبلة: من الحركة الإسلامية إلى دعوة الإسلام، دار السلام، بالقاهرة: (٢٠٠٩م).

- ما رأيك في سعر الكتاب ؟ رخيص معقول مرتفع

(لطفاً اذكر سعر الشراء) العملة

- هل صادفت أخطاء طباعية أثناء قراءتك للكتاب ؟

لا يوجد نادرًا يوجد أخطاء مطبعية

طفلاً حدد موضع الخطأ

عزيزي انتللاً من أن ملاحظاتك واقتراحاتك سببنا للتطوير وباعتبارك من قرائنا فنحن نرحب بملحوظاتك النافعة . . . فلا تتوان ودون ما يحول في خاطرك : -

دعوة : نحن نرحب بكل عمل جاد يخدم العربية وعترتها والترااث وما يتفرع منه ، والكتب المترجمة عن العربية للغات العالمية - الرئيسية منها خاصة - وكذلك كتب الأطفال .

عزيزي القارئ أعد إلينا هذا الحوار المكتوب على

e-mail:info@dar-alsalam.com

أو ص.ب ١٦١ الغورية - القاهرة - جمهورية مصر العربية
لراسلك ونرودك بيان الجديد من إصداراتنا

(من أجل تواصل بين الناشرين والقارئ)

هذا الكتاب

رسالة لكل باحث عن معرفة الطريق السالكة إلى الله أو لا، ثم لكل المهتمين بالمشروع الإصلاحي، على نهج رسول الله ﷺ في سيرته ودعوته، في ظل ما يجتاز العالم الإسلامي اليوم من فتن كقطع المظلم، لا يكاد قطر من أقطاره ينجو منها، ومن فجور سياسي داهم، يحرق الأضظرر واليابس، تهب به عواصف ما يسمى بـ «العولمة» أو «حركة تهويـد العالم».

ولقد تبين في غبار أحداث العلم الكبير هذه أن مواقع المسلمين عامة ومواضع أهل الشأن الدعوي خاصة، قد تراجعت إلى خط الدفاع الأخرى، وأن المضي بالدعـوة في مسارها المشاهد اليوم في كثير من البلاد، مضـيا لا يراعي الظروف الجـديدة، إنـها هو مقـاومة بـصـير الأمة.

ومن أجل ذلك عمل هذا الكتاب على إحياء «مبدأ تأسيـم الدعـوة إلى الله» أي تحريرها من كل انتـهـاء حركـي، ويـكون العمل الدعـوي إذـن «من القرآن إلى العـمرـان» أي الانخـراطـ في حـرـكة «البعثـةـ الجـديدةـ»، حـرـكةـ يـدـيرـهاـ ربـ الكـونـ، الحـيـ القـيـومـ سبحانهـ، مـحـالـهاـ فـيـ الـأـرـضـ، وـتـقـدـيرـهاـ فـيـ السـاءـ، تصـمـيمـهاـ القرآنـ، وـمـنـذـهـاـ الإـنـسـانـ.

المـاـشـرـ